



محاضرات في البلاغة العربية

(علم المعاني)

إعداد

أ.م. د/شوزان نشأت عبد الرازق

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

العام الجامعي

٢٠٢٤/٢٠٢٥ م

بيانات الكتاب

كلية: التربية - بقنا

الفرقة: الثانية عام

القسم: اللغة العربية

برنامج إعداد معلم التعليم الإعدادي والثانوي

تاريخ النشر: الفصل الدراسي الأول ٢٠٢٤م

عدد الصفحات: ١٩٣

إعداد: أ.م. د. شوزان نشأت عبد الرازق

الرموز المستخدمة

نص للقراءة

أنشطة ومهام

أسئلة للتفكير والتقييم الذاتي

المحتوي

المقدمة:

- الفصل الأول: مقدمة في علوم الفصاحة والبلاغة

الفصل الثاني: في الخبر والإنشاء

- الفصل الثالث: التقديم والتأخير

- الفصل الرابع: أسلوب الالتفات

-الفصل الخامس: التعريف والتكثير

-الفصل السادس: أسلوب القصر وأدواته

- الفصل السابع: الفصل والوصل

الفصل الثامن: الإيجاز والإطناب والمساواة

➤ تدريبات عامة على ما سبق دراسته

➤ المراجع

➤ فهرس الكتاب

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

المقدمة:

الحمد لله الذي قصرت عبارة البلغاء عن الإحاطة بمعاني آياته، وعجزت ألسن الفصحاء عن بيان بدائع مصنوعاته، والصلاة والسلام على من ملك طرفي البلاغة إطنابًا وإيجازًا، وعلى آله وأصحابه الفاتحين بهديهم إلى الحقيقة مجازًا.

وبعد:

فهذا كتاب في علم المعاني، سهل المنال، قريب المأخذ، برئ من وصمة التطويل الممل، وعيب الاختصار المخل، جمعت فيه خلاصة موضوعات علم المعاني، وتركت ما لا تمس إليه الحاجة، ووقوفًا عند حد اللازم. وكشفًا عن سمات الجمال في الكلام البليغ، وإدراكًا لأسرار الفن في الأدب الرفيع، كما نطمح من وراء ذلك أن يجد الطلاب في هذا الكتاب صديقًا وفتيًا ومرشدًا إلى تذوق كل أثر جميل في اللغة، والله من وراء القصد.

الفصل الأول

مقدمة في الفصاحة والبلاغة

الفصاحة: وصف ينبئ عن الظهور والبيان فيقال: أفصح (١) اللين إذا نزعت رغوته فظهر، كما يقال: سقاها لبنا فصيحا أي منزوع الرغوة، ومنه المثل المعروف: وتحت الرغوة اللين الفصيح، وهذا المثل يضرب للأمر ظاهره غير باطنه.

الفصاحة في اللغة:

وفي المعجم (٢): فصح الأعجمي بالضم فصاحة: تكلم بالعربية وفهم عنه، وقيل: جادت لغته حتى لا يلحن، وكذلك الصبي يقال: أفصح الصبي منطقته إفصاحاً: إذا فهمت ما يقول من أول ما يتكلم، وأفصح عن الشيء إفصاحاً إذا بينه وكشفه، وبالتأمل ترى أن الفصاحة هي الكشف عن المعاني والتعبير عن مكنونها بالعبارات القوية الواضحة.

أما معناها الاصطلاحي فيختلف باختلاف موصوفها سواء كان الكلمة أو الكلام أو المتكلم.

أولاً: فصاحة الكلمة:

وهي سلامتها من العيوب الثلاثة المتمثلة

١ - تنافر الحروف.

(١) المنهاج الواضح للبلاغة: حامد عوني، مكتبة الجامعة الأزهرية، ١٥/٣

(٢) لسان العرب مادة فصح المجلد ٢ ص ١٩٩.

٢ - الغرابة. ٣ - مخالفة الوضع (القياس).

ووجه حصر مخلات فصاحة الكلمة المفردة في الأمور الثلاثة السابقة هو أن للكلمة (مادة) هي حروفها، و (صورة) هي صيغتها، و (دلالة): هي معناها.

فإن كان العيب في المعنى فهو الغرابة، وإن كان في الصيغة فهو مخالفة الوضع، وأما إذا كان العيب في مادة الكلمة فيسمى بتنافر (١) الحروف.

أولاً: تنافر الحروف:

وهو وصف في الكلمة يوجب نقلها على اللسان وعسر النطق بها وهو نوعان:

الأول: تنافر ثقيل: وهو ما كانت الكلمة بسببه متناهية في الثقل على اللسان ويصعب النطق بها، كما روي أن أعرابياً سئل عن ناقته فقال: تركتها ترعى الهمخ.

وروي عن الخليل أنه قال سمعنا كلمة شنعاء وهي الهمخ (٢)، وكذلك من الثقل على اللسان لفظ (الظش) للموضع الخشن، فمخارج الحروف في الكلمتين (الهمخ - والظش) متقاربة الهاء والعين والخاء خارجة من الحلق فمثلت صعوبة في النطق بها.

والثاني: تنافر خفيف: وهو ما دون ذلك كلفظ مستشزرات من قول امرئ القيس:

غدائره (٣) مستشزرات إلى العلا تضل العقاص في مثنى ومرسل

(١) مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني ضمن شروح التلخيص ٧٧/١

(٢) اسم نبات بقرينة قول الأعرابي: (ترعى).

(٣) الغدائر: جمع غديرة وهي الضفيرة، ومستشزرات: أي مرتفعات

فالشاعر يصف محبوبته بغزارة شعرها وكثافته وأنه مرتفع فوق رأسها، كما أنه متنوع ما بين معقوص على رأسها ومرسل فوق ظهرها... والتنافر ورد في (مستشزرات) لقرب مخارج الحروف أيضاً.

ومما هو متنافر وبعدت مخارج حروفه كلمة (ملح) بمعنى أسرع؛ فالميم خارجة من الشفتين والعين من أقصى الحلق. وسواء قربت مخارج الحروف أم تباعدت فضابط التنافر ليس ذلك بدليل خلو كلمة «أعهد» الواردة في قوله تعالى: " أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ " [يس: ٦٠] من التنافر، فكلمة "أعهد" فصيحة وخالية من التنافر مع ما فيها من قرب في مخارج الحروف، وكذلك كلمتي الجيش والشجي... فقد سلمت مادتهما مع ما فيهما من تقارب في مخارج الحروف، كما أن كلمة (علم) و(ملح) سلمت مادتهما أيضاً وختلنا من التنافر على تباعد مخارج حروفهما. إذن: فما الضابط المعول عليه في معرفة الخلل الواقع في الكلمة، والمسمى بتنافر الحروف؟ يقول العلامة سعد الدين التفتازاني: (1)

وحاصله أن الضابط المعول عليه في ضبط تنافر الحروف الذوق السليم، وهو يعني بالذوق: قوة يدرك بها لطائف الكلام ووجوه تحسينه، فكل ما عده الذوق ثقيلًا متعسر النطق به كان ثقيلًا، وما لا فلا، خلافاً لمن قال: الضابط المعول عليه في ضبط التنافر بعد المخارج ولمن قال قريباها؛ لأن كلا منهما غير مطرد.

ثانياً: الغرابة:

وتتحقق الغرابة يكون الكلمة وحشية لا يتعرف على معناها بظاهرها، والعقاص: جمع عقيصة، وهي الخصلة من الشعر مجتمعة فوق الرأس.

والمثنى: الشعر المقتول، والمرسل: ضده.

(1) حاشية السعد ضمن الشروح، ١٠/٨٠

بل يحتاج في الكشف عن المعنى إلى مراجعة كتب اللغة، أو إلى البحث عن قرينة التردد الكلمة بين معنيين أو أكثر بلا قرينة تدل على أيهما المراد.

فالأول: كقول الأعرابي (١) حينما سقط عن حمار فاجتمع عليه الناس:

ما لكم تكأتم على تكأؤكم على ذي جنة افرنقوا عني، فالكلمات لا يتضح معناها بداية، إذ لا بد من مراجعة المعاجم لنتبين منها أن المعنى: ما لكم اجتمعتم على اجتماعكم على مجنون، ابتعدوا عني.

أما الثاني: وهو ما يوجب بحث السامع عن قرينة إذ أن للكلمة الغريبة أكثر من معنى، ولا توجد قرينة تحدد المعنى المقصود، وذلك كما في قول رؤية بن العجاج:

ومقلة وحاجبًا مزججًا وفاحمًا ومرسنا مسرجًا

فإنه لم يعرف المراد بقوله: مسرجًا حتى اختلف في تخريجه فقال ابن دريد يريد أن أنفها في الاستواء والدقة كالسيف السريجي أي المنسوبة إلى سريج وهو قين حداد تنسب إليه السيوف في الدقة والاستواء.

وقال ابن سيدة: يريد أنه في البريق واللمعان مثل السراج، ولأن أصل مسرجًا هو فعل المضعف العين والذي يدل على مجرد نسبة شيء لشيء مثل كفر فلان فلانًا يعني نسبه إلى الكفر والعياذ بالله، وفسقه: نسبه إلى الفسق، فهو مكفر أو مفسق أي منسوب إلى الكفر أو إلى الفسق، ولا يدل على النسبة التشبيهية.

وللتردد في تحديد المعنى المقصود، هل هو الدقة والاستواء؟ أم البريق واللمعان؟ كانت الكلمة غير ظاهرة الدلالة على معناها، فوسمت بالغرابة، ومعنى البيت يدور حول وصف المرأة بأن عيونها جميلة، ويعلوها حاجب طويل مقوس ودقيق، أما شعرها فأسود كالفتح، ولها أنف إما كالسيف السريجي في دقة صناعته، وإما كالسراج في بريقه ولمعانه.

١ عيسى بن عمر النحوي.

٢ مزججًا: مرققًا مطولًا، وفاحمًا: أسود كالفتح، ومرسنا: أنف.

وضابط الحكم على الكلمة بالغرابة تراه يعود إلى اعتبار العرب الخالص من الأعراب سكان البادية؟ أم باعتبار غير العرب من المولدين؟ والاعتبار الأول أولي لأن فصاحة القرآن الكريم (١) باعتبار الخالص من العرب إذ بلغتهم نزل.

ثالثاً: مخالفة الوضع مع قلة الاستعمال:

وهو خروج الكلمة عن القانون الصرفي الثابت عن الواضع كقول أبي النجم الفضل بن قدامة العجلي الشاعر الإسلامي:

الحمد لله العلي الأجلل الواهب الفضل الكريم المجزل

فترى الشاعر وقد خالف القانون الصرفي الثابت عن الواضع وهو الإدغام - الأجلّ - وعمد إلى فك الإدغام - الأجلل - بدون مسوغ لذلك، ومثله ضننوا بمعنى بخلوا في قول الشاعر:

مهلاً أعاذل قد جربت من خلقي أني أجود لأقوام وإن ضننوا

فالشاعر يخاطب من توجه إليه اللوم على إحسانه إلى قوم بخلوا عليه يوماً ما، فيحثها على التمهّل وعدم توجيه اللوم إليه ومراجعة أخلاقه التي منها الكرم وإسداء المعروف لا لعله إلا لذات المعروف فقط، فهو جواد كريم حتى إذا بخل عليه الناس أو أساءوا إليه، ولفظ - ضننوا - غير فصيح؛ لأنه مخالف للقانون الصرفي الثابت عن الواضع، والأصل ضنوا بإدغام المثليين. كما أن الأصل في بوق أن تجمع على أبواق جمع تكسير، ولكن المتنبي جمعها جمع مؤنث سالم في قوله مادحاً سيف الدولة:

فإن يك بعض الناس سيفاً لدولة ففي الناس بوقات لها وطبول

والمعنى إذا كنت سيفاً لدولتك ورئيساً لها، ولك أترك وسطوتك، فغيرك من الملوك بمثابة

(1) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، ٨٧/١

البوق والطبل لا أثر له، ولا فائدة فيه، والشاهد في البيت، هو مخالفة القانون الصرفي الثابت عن الواضع بجمع بوق جمع مؤنث سالم فجاءت الكلمة غير فصيحة؛ لأن العيب شمل صيغتها، فخالفت الواضع والقياس جمعها جمع تكسير على أبواق.

وقد أوتر التعبير بـ (مخالفة الواضع) بدلا من التعبير بـ(مخالفة القياس) لأن العبرة بما ثبت عن الواضع فقد يوافق القياس الصرفي وقد يخالف مثل أبي يأبى بفتح الباء في المضارع والقياس كسرهما فيه، لأن فعل (بفتح العين) لا يأتي مضارعه علي يفعل (بالفتح) إلا إذا كانت عين ماضيه أو لامه حرف حلق نحو سأل ونفع، فمجيء المضارع بالفتح على خلاف القياس، إلا أن الفتح ثبت عن الواضع.

ومثل (آل وماء) وذلك لأن أصل (آل) أهل وأصل (ماء) موه أبدلت الهاء فيهما همزة، وإبدال الهمزة من الهاء وإن على خلاف القياس إلا أنه ثبت عن الواضع.

ومثله (عود يعود) فالقياس فيهما (عار يعار) بقلب الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها، كزال يزال، فتصبح الواو خلاف القياس إلا أنه ثبت عن الواضع (١)

و مما هو جدير بالذكر في هذا الموضع أن ما خالف القياس و كثر استعماله يعد فصيحًا، حيث يلجأ العديد من الشعراء إلى مخالفة الواضع للضرورة الشعرية، و لا يحكم على أشعارهم بالتعريف عن الفصاحة لأنه كثر استعمال تلك الألفاظ كجمع سرير علي سرر والقياس سرائر، ولكنه ورد هكذا في القرآن الكريم "فيها سرر مرفوعة * وأكواب موضوعة « [الغاشية ١٣-١٤] (٢) والذي عليه مدار الكلام أنه إذا خالفت الكلمة القواعد النحوية والصرفية واستوحشتها النفس يحكم عليها بالخلو من الفصاحة أما إذا لم يلتبس معناها بمعنى كلمة أخرى وألفت الأذن سماعها فهي فصيحة.

(١) حاشية الدسوقي، ١٩/١،

(٢) عروس الأفراح ضمن الشروح ص ١، ص ٨٨

ثانياً: فصاحة الكلام:

الكلام الفصيح: هو الذي يبرأ من ثلاثة عيوب وهي:

أولاً: ضعف التأليف: ويتحقق بكون الكلام خارجاً عن قواعد النحو المشهورة وله صور:
الصورة الأولى: هي عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة؛ كقول المتنبي يمدح سيف الدولة ويشكره على هدية بعثها إليه:

ليس إلاك يا علي همام سيفه دون عرضه مسلول

يرى الشاعر أن سيف الدولة من الشجاعة بمكانة، فهو الوحيد الذي يدافع عن عرضه بسيفه، والشاهد في البيت (إلاك) حيث وصل الضمير بـ إلا والأصل أن يقول: إلا إياك.

ومثله قول الشاعر:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى سنمار (١)

يدعو الشاعر على أبي الغيلان بأن يكون صنيع أولاده معه حال كبر سنه كصنيع النعمان مع سنمار، والشاهد في إعادة الضمير في (بنوه) على (أبا الغيلان) المتأخر لفظاً لوقوعه بعد (بنوه) ورتبة، ولا يخفى ما فيه من خروج عن قواعد النحو المألوفة، إذ لأصل عود الضمير على متقدم لفظاً ورتبة.

(١) سنمار: اسم رجل بنى للنعمان بن امرئ القيس قصراً بالكوفة، ولما أتم صنعته من الحسن والإتقان وسلم القصر للنعمان، ألقاه النعمان من شرفته لنلا يبنى لأحد قصراً مثله، فمات في الحال، وصار هذا مثلاً لكل من يجازي على الخير بالشر.

(٢) حسان بن ثابت هو شاعر رسول الله ﷺ، عاش مائة وعشرين سنة نصفها في الجاهلية ونصفها في الإسلام.

ومن ضعف التأليف أيضاً قول حسان بن ثابت (٢) يرثي مطعم بن عدي:

ولو أن مجداً أخذ الدهر واحداً من الناس أبقى مجده الدهر مطعماً

يعني أنه إذا كان للدهر أن يخلد أحد ذكر من الناس، نظراً لمجده، فأولاهم بذلك هو مطعم بن عدي، والشاهد في قوله (مجده) حيث أعار الشاعر الضمير في (مجده) على مطعم، وهو متأخر لفظاً ورتبة لأنه مفعول به ورتبته التأخير، كما في المثال السابق.

الصورة الثانية لضعف التأليف: نصب المضارع بدون ناصب كقول الشاعر:

قبيح من الإنسان ينسي عيوبه *** ويذكر عيباً في أخيه قد اختفى

يرى الشاعر أنه لا يليق بالعاقل أن يقعد للناس على هفواتهم يلتمسها، ويضخم من شأنها في حين أنه عن عيوبه غافل، فالأولى به أن يُقوم نفسه بإصلاح أمرها، ورفع شأنها... والشاهد في البيت (ينسي) و(يذكر) أفعال مضارعة نصبت بدون أن يتقدمها ناصب على تقدير (أن ينسي) و (أن يذكر)

ثانياً: تنافر الكلمات: ويأتي على صورتين:

أ- تنافر ثقيل: وهو كانت الكلمات بسببه متناهية الثقل على اللسان وعسر النطق بها متتابعة كقول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

ويقع التنافر في الشطر الثاني من البيت فلو تناولنا كلماته كلاً على حدة وهي (قرب) (قبر) (حرب) لوجدناها جميعاً كلمات فصيحة خفيفة النطق لا يجد السامع فيها عيباً، وكذلك المتكلم، ولكن ضم بعضها إلى بعض هو الذي أكسبها الثقل، بحيث يتحدى بهذا البيت من ينشده ثلاث مرات متوالية إلا ويغلط المنشد فيه، وفي كل بيئة جمل اصطلاح الناس عليها، جمل مشابهة لهذه الجمل يتفكك بها الناس.

ومنه قول الشاعر يصف فرساً بالخفة والسرعة:

أزج زلوج هزرفى زفافزف هزف يبذ الناجيات الصوافنا

وأزج - زلوج هزرفى: صفات للفرس بالخفة والسرعة، وهزف: طويل الظهر، يبذ: يسبق، الناجيات الصوافن: الخيل القوية.

ب - **تنافر خفيف**: وهو ما كان دون الثقل في تعذر النطق بكلماته مجتمعه، كقول أبي تمام في قصيدة يمدح بها أبا الغيث موسى بن إبراهيم ويعتذر إليه:

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معي وإذا ما لمته لمته وحدي

والثقل في البيت كما ترى جاء من اجتماع (الحاء) و (الهاء) في (أمدحه) لأن مخرجهما واحد وهو الحلق وتكرار الكلمات.

يقول ابن يعقوب المغربي:

لا شك أن تكرار (أمدحه) أوجب ثقلا من جهة تكرار الحاء والهاء، وأما نفس اجتماع الحاء والهاء بدون تكرار، فلا يوجب ثقلا يخل بالفصاحة، لأنه وجد في التنزيل المنزه عما يخل بالفصاحة^(١)، كما في قوله تعالى: "ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا" [الإنسان: ٢٦]

ثالثاً: خلوصه من التعقيد:

وهو ألا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى المراد به وله سببان.

أولاً: تعقيد لفظي: وهو ما يحصل به خلل في نظم الكلام، ولا يدري السامع كيف يتوصل منه إلى معناه، كقول الفرزدق يمدح إبراهيم بن هشام خال هشام بن عبد الملك بن مروان:

وما مثله في الناس إلا مملكا **** أبو أمه حي أبوه يقاربه

فكان حقه أن يقول: وما مثله - الضمير يعود على إبراهيم المخزومي - في الناس حي يقاربه إلا مملك - ويقصد به الخليفة هشام - أبو أم هذا الملك يعني أبو أم هشام، (أبوه) في الشطر الثاني يقصد بها أبو إبراهيم، فجد الخليفة - إذن - أبو إبراهيم، فأبراهيم - إذن - خال

الخليفة. فالضمير في أمه للملك وفي أبوه للممدوح، ففصل بين أبو أمه وهو مبتدأ، وبين أبوه وهو خبره ب(حي) وهو أجنبي، وكذلك فصل بين حي ويقاربه وهو نعت حي ب(أبوه) وهو أجنبي، وقدم المستثنى على المستثنى منه، فهو كما يبدو لك في غاية التعقيد.

ويذم الإمام عبد القاهر التعقيد إذ يقول: وأما التعقيد فإنما كان مذموماً لأجل أن اللفظ لم يرتب الترتيب الذي بمثله تحصل الدلالة على الغرض حتى احتاج السامع أن يطلب المعنى بالحيلة، ويسعى إليه من غير الطريق، وإنما ذم هذا الجنس لأنه أحوجك إلى فكر زائد عن المقدار الذي يجب في مثله، وكذلك بسوء الدلالة، وأودع المعنى لك في قالب غير مستو ولا مجلس، بل خشن مضرس، حتى إذا رمت إخراجها منه عسر عليك، وإذا خرج خرج مشوه الصورة ناقص الحسن.

ومن التعقيد اللفظي قول الشاعر:

وأصبحت بعد خط بهجتها **** كأن قفراً رسوماً قلماً

يعني فأصبحت بعد بهجتها قفراً كأن قلماً خط رسوماً ففصل بين المضاف (بعد) والمضاف إليه (بهجتها) بالفعل (خط).

وفصل بين الفعل (خط) وبين مفعوله (رسوماً) بأجنبي وفصل بين (أصبح) وخبرها (قفراً) بأجنبي، ولا يخفى ما في البيت من في خفاء المعنى يعود إلى ترتيب اللفظ ونظمه.

فالكلام الخالي من التعقيد اللفظي إذن هو:

ما سلم نظمته من الخلل، فلم يكن فيه ما يخالف الأصل من تقديم، أو تأخير، أو إضمار أو غير ذلك إلا وقد قامت عليه قرينة ظاهرة لفظية أو معنوية. وقد يكون التعقيد اللفظي خفيفاً؛ كقول المتنبي في مدح القاضي أبي أحمد الفضل بن عبد الله الأنطاكي

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم*** شيم على الحساب الأغر دلائل

الجفخ: الفخر، الشيم: الخليفة، الأغر: الأبيض.

يعني أن لهم صفات عالية تدل على كريم أصلهم، وحينما انتسبت إليهم تلك الصفات ازدادت شرفاً واعتزازاً، فتراه فصل بين الفعل (جفخت) وفاعله (شيم) بالجملة الحالية (وهم لا يجفخون بها)، كما فصل بين الصفة (دلانل)، والموصوف (شيم) بالجار والمجرور (على الحساب الأغر).

فقل لي بربك كيف تصل إلى معنى هذا البيت على ما فيه من فواصل وتعقيدات؟!!

ثانياً التعقيد المعنوي: وهو الذي يكون انتقال الذهن فيه من المعنى الأول المفهوم من اللفظ لغة إلى المعنى الثاني المقصود خفياً في دلالاته على المعنى المراد؛ كقول العباس بن الأحنف:

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا *** وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

فقد أعلن العباس صراحة إزماعه الفراق على ما في الفراق والبعد من ألم ومرارة، ولكنه سيحتملها لعلها تكون السبب في القرب ودوام المحبة والفرح، وسلك للتعبير عن هذا المعنى طريقة الكناية، فكنى بسكب الدموع عما يوجبه الفراق من الحزن، وأصاب في هذه؛ لأن من شأن البكاء أن يكون كناية عن الفراق، كقولهم: أبكاني وأضحكني، أي: أساءني وسرني.

ولكنه لما أراد أن يكني عما يوجبه دوام التلاقي من السرور بالجمود لظنه أن الجمود خلو العين من البكاء مطلقاً من غير اعتبار شيء آخر، تراه أخطأ في ذلك لأن الجمود هو خلو العين من البكاء في حال إرادة البكاء منها، فلا يكون كناية عن المسرة، وإنما يكون كناية عن البخل كما في قول الخنساء ترثي أباها صخرًا:

أعيني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندي

«ولو كان الجمود يصلح أن يراد به عدم البكاء في حال المسرة لجاز أن يدعى به للرجل فيقال: لا زالت عينك جامدة كما يقال: لا أبكى الله عينك، وذلك مما لا يشك في بطلانه، وعلى ذلك قول أهل اللغة: سنة جماد لا مطر فيها وناقة جماد لا لبن لها، فكما لا تجعل

السنة والناقة جمادًا إلا على معنى أن السنة بخيلة بالقطر والناقة لا تسخو باللبن، لا تجعل العين جمودًا إلا وهناك ما يقتضي إرادة البكاء منها، وما يجعلها إذا بكت محسنة موصوفة بأنها قد جادت، وإذا لم تبك مسينة موصوفة بأنها قد ضنت»^(١)، فالكلام الخالي عن التعقيد المعنوي ما كان الانتقال من معناه الأول إلى معناه الثاني الذي هو المراد به ظاهرًا.

ثالثًا: فصاحة المتكلم:

وفصاحة المتكلم: ملكة يقتدر بها على التعبير عن المعنى هي المقصود بلفظ فصيح، وقيل ملكة ولم يقل صفة؛ ليوحي بأن الفصاحة من الهيئات الراسخة حتى لا يكون المعبر عن مقصودة بلفظ فصيح فصيحًا إلا إذا كانت الصفة التي امتك بها التعبير عن المقصود بلفظ فصيح راسخة فيه، وقيل: يقتدر بها ولم يقل يعبر بها، ليشمل حالتي النطق وعدمه، وقيل: بلفظ فصيح ليعم المفرد والمركب.



البلاغة في اللغة تعني: الوصول والانتهاء، وبهذا المعنى وردت في القرآن الكريم كثيرًا

كما في قوله تعالى: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» [يوسف: ٢٢]

وقوله تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قَلَنًا يَا ذَا

الْقُرْآنِ إِنَّمَا أَنْ تَعَذِّبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا» [الكهف: ٨٦].

والبلاغة اصطلاحًا: تختلف باختلاف موصوفها فيقال: متكلم بليغ لمن يعرب عما في نفسه مراعيًا لأحوال سامعيه، ويقال: كلمة بليغة إذا قُصد منها خطبة أو مقالة... ولا يُطلق على الكلمة المفردة.

وأما بلاغة الكلام فهي: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، أي تحقق شروط فصاحة الكلمة والكلام والمتكلم فيه، ومقتضيات الأحوال تختلف فإن مقامات الكلام متفاوتة، فما يقال في مقام التنكير لا يصلح لمقام التعريف، ومقام الإطلاق يبين مقام التقييد، ومقام التقديم يبين مقام التأخير ومقام الذكر يبين مقام الحذف، ومقام الفصل يبين مقام الوصل، ومقام الخاصة يبين مقام العامة، فللخاصة أسلوب لا يقوم غيره مقامه، بل لكل علماء في تخصص ما كلام يوصف بالبلاغة في مقامهم؛ لأنه يتناسب ومجال دراستهم فهو مطابق للمقام ومقتضى الحال في وسطهم فقط.

وقد عاب النقاد على المتنبي في رثائه لأم سيف الدولة حين قال:

صلاة الله خالقنا حنوط *** على الوجه المكفن بالجمال

فقال ابن وكيع: إن وصفه أم الملك بجمال الوجه غير مختار.

يقول الرماني: إنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ.

ومن هنا نعلم أن الحال هو الأمر الذي يدعو المتكلم لأن يورد كلامه الحال هو معرفاً أو منكرًا أو مقدماً أو مؤخراً سواء موجزاً أم مفصلاً... فهو الداعي للمتكلم على أن يورد في كلامه شيئاً خاصاً زائداً على أصل المعنى.

ومقتضى الحال: هو ذلك الأمر الزائد الذي جعله المتكلم في كلامه لاقتضاء الحال إياه؛ كالتأكيد للمنكر، والتقديم للأهمية، والإيجاز للعالم، والتفصيل للطالب وما إلى ذلك، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال: هي اشتغال الكلام على ذلك الشيء الزائد.

فالإنكار مثلاً والتوكيد مقتضى هذه الحالة، ومجيء الكلام مؤكداً. مطابقة الكلام لمقتضى الحال ولكل مقام مقال، فالفعل مع (إذا) له مقام ليس له مع (إن) قال تعالى: «فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه» [الأعراف: ١٣١].

فقد عبر في جانب الحسنة بالفعل مصحوباً ب(إذا) الدالة على التحقيق؛ لأن المقام مقام جزم ويقين، وعبر في جانب السيئة بالفعل مصحوباً ب(إن) المتضمنة لمعنى الشك والتردد.

وللبلاغة طرفان: أعلى؛ إليه تنتهي وهو حد الإعجاز، وانفرد به العليم الخبير، ولهذا فالقرآن الكريم أعلى طبقات البلاغة.

وأسفل؛ منه تبتدئ وهو ما إذا غير الكلام عنه إلى ما هو دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات، وإن كان صحيح الإعراب.

وبين الطرفين مراتب كثيرة متفاوتة، بعضها أعلى من بعض ويشملها بلاغة البلغاء من الناس.

يقول الرماني: " فأما البلاغة فهي على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة، فما كان في أعلاها طبقة فهو معجزة وهو بلاغة القرآن، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس".^(١)

أما بلاغة المتكلم، فهي ملكة في المتكلم يتمكن بها من تأليف كلام بليغ متى شاء في أي معنى يريده، فالمتكلم بليغ إذا وجدت فيه هذه الملكة وإن لم ينطق.

واشترط العلماء في بلاغة الكلام أن يسلم من العيوب المخلة بفصاحته وفصاحة كلماته، وعلى ذلك فالبلاغة أخص من الفصاحة وهي أعم من البلاغة، ومن ثم يتضح قول البلاغيين: كل متكلم بليغ لا بد أن يكون فصيحاً، وليس بلازم أن يكون كل متكلم فصيح بليغاً، فقد يصوغ المتكلم كلاماً فصيحاً غير مطابق لمقتضى الحال فيفقد شرط بلاغته.

* * *

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم: ص ٧٥.

ندرس البلاغة لأنه عن طريقها ندرك الفرق بين كلام وكلام وتعلم أسباب الحكم لكلام على غيره، فالبلاغة بمثابة الميزان الذي يوضع الكلام عليها فيثقل أو يخف بمقدار ما راعى فيه قائله من شروطها، ولأن العرب أهل لسن من قديم... ولما نزل عليهم القرآن.. أيقنوا أنه ليس ككلامهم، فعظموه ولم يحاكوه، حتى أعداؤه شهدوا له، أما الآن وقد تطاولت الألسن والأيدي على كل ما يخص الإسلام، فليس أمامنا إلا الميزان نتدارس فيه القرآن، ونقارن بين كلام وكلام لنؤمن عن يقين بأنه كلام المولى العزيز المتعال، وقد أشاد العلماء بدراسة البلاغة، والعناية بها، كأبي هلال العسكري إذ يقول:

إن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخل بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله سبحانه وتعالى به من حسن التأليف، وبراعة التراكيب وما شحنه به من الإعجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمنه من الحلاوة وجلله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيرت عقولهم فيها، وإنما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه، وقصورهم عن بلوغ غايته في حسنه وبراعته، وسلاسته وفصاحته، وكمال معانيه وصفاء ألفاظه.

فينبغي من هذه الجهة أن يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله، والتصديق بوعدده ووعيده على ما ذكره إذ كانت المعرفة بصحة النبوة تتلو المعرفة بالله جل وعز شأنه.

ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة ومناقب معروفة، منها أن صاحب العربية إذا أخل بطلبه، وفرط في التماسه، ففاته فضيلته، لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء، ولفظ حسن وآخر قبيح، وشعر نادر، وآخر بارد بان جهله وظهر نقصه.

وهو أيضاً إذا أراد أن يؤلف قصيدة أو ينشئ رسالة - وقد فاته هذا العلم- مزج الصفو بالكدر، وخلط الغرر بالمرر واستعمل الوحش العكر فجعل نفسه مهزأة للجاهل، وعبرة للعاقل.

علم المعاني

وهو علم: يُعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال.

فهذا العلم يكشف لنا عن دقائق الأساليب العربية. وأحوال اللفظ العربي: هي الأمور العارضة التي تختلف باختلاف المقام الذي ورد فيه الكلام؛ كالإيجاز للخاصة، والإطناب في مجال الشرح والتفصيل، والتأكيد في مقام الإنكار وتعريته عن التأكيد مع خالي الذهن، وما إلى ذلك من أحوال تعتري المخاطب. والمقصود من علم المعاني منحصر في ثمانية أبواب:

أولها: أحوال الإسناد الخبري.

وثانيها: أحوال المسند إليه.

وثالثها: أحوال المسند.

ورابعها: أحوال متعلقات الفعل.

وخامسها: القصر.

وسادسها: الإنشاء.

وسابعها: الفصل والوصل.

وثامنها: الإيجاز والإطناب والمساواة.

والسر في انحصار علم المعاني في هذه الأبواب الثمانية يرجع إلى أن الكلام إما خبر أو إنشاء، لأنه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه أو لا يكون لها خارج، فالأول الخبر والثاني الإنشاء، ثم الخبر لا بد له من إسناد ومسند إليه ومسند وأحوال مثل: الصدق ضياء والصدقة برهان، فالصدق مسند إليه وضياء مسند، وإثبات الضياء للصدق إسناد، فهذه الثلاثة هي الأبواب الثلاثة الأولى، ثم المسند قد يكون له متعلقات إذا كان فعلا أو متصلا به أو في معناه كاسم الفاعل ونحوه.. وهذا الباب الرابع، ثم الإسناد والتعلق كل

واحد منهما يكون إما بقصر أو بغير قصر، وهذا هو الباب الخامس، والإنشاء هو الباب السادس. ثم الجملة إذا قرنت بأخرى فتكون الثانية إما معطوفة على الأولى أو غير معطوفة وهذا هو الباب السابع، ولفظ الكلام البليغ إما زائد على أصل المراد لفائدة أو غير زائد عليه وهذا هو الباب الثامن.

* * *

البلاغيون والخبر

ويقول البلاغيون: إن احتمال الخبر للصدق والكذب إنما يكون بالنظر إلى مفهوم الكلام الخبري ذاته، دون النظر إلى المخبر أو الواقع؛ إذ لو نظرنا عند الحكم على الخبر بالصدق أو الكذب إلى المخبر أو الواقع، لوجدنا أن من الأخبار ما هو مقطوع بصدقه لا يحتمل كذبا، وما هو مقطوع بكذبه لا يحتمل صدقا.

فمن الأخبار المقطوع بصحتها ولا تحتمل الكذب البتة أخبار الله تعالى، أي كل ما يخبرنا الله به، وأخبار رسله، والبديهيات المألوفة من مثل: السماء فوقنا والأرض تحتنا، وماء البحر ملح وماء النهر عذب.

ومن الأخبار المقطوع بكذبها ولا تحتمل الصدق الأخبار المناقضة للبديهيات، نحو: الجزء أكبر من الكل، والأسبوع خمسة أيام، وكذلك الأخبار التي تتضمن حقائق معكوسة، نحو: الأمانة رذيلة والخيانة فضيلة.



وكل جملة من جمل الخبر لها ركنان: محكوم عليه، وهو المسند إليه، ومحكوم به، وهو المسند، وما زاد على ذلك في الجملة غير المضاف إليه وصلة الموصول فهو قيد فإذا قلنا: «سافر الصديق» و «الناجح مسرور»، فإن الذي حكم عليه بالسفر أو أسند إليه السفر في الجملة الأولى هو «الصديق»، والذي حكم به للصديق أو أسند له هو «السفر»، وعلى هذا يكون «الصديق» هو المحكوم عليه أو المسند إليه، ويكون «سافر» هو المحكوم به أو

المسند. وركنا الجملة الثانية هما «الناجح» و «مسرور»، والذي حكم عليه بالسرور أو أسند إليه السرور هنا هو «الناجح»، والذي حكم به للناجح أو اسند له والسرور». وعلى هذا يكون «الناجح» هو المحكوم عليه أو المسند إليه، ويكون «سرور» هو المحكوم به أو المسند. والمسند إليه عادة هو الفاعل، أو نائب الفاعل، أو المبتدأ الذي له خبر، أو ما أصله المبتدأ كاسم كان وأخواتها. والمسند هو الفعل التام، أو المبتدأ المكتفي بمرفوعه، أو المبتدأ، أو ما أصله خبر المبتدأ كخبر كان وأخواتها، أو المصدر النائب عن فعل الأمر.

ولعلنا لاحظنا من الجملتين السابقتين ان الخبر إما أن يكون جملة اسمية أو فعلية. والجملة الاسمية تفيد بأصل وضعها ثبوت شيء لشيء ليس غير؛ فجملة «الناجح مسرور» لا يفهم منها سوى ثبوت شيء لشيء للناجح من غير نظر إلى حدوث أو استمرار.

ولكن الجملة الاسمية قد يكتنفها من القرائن والدلالات ما يخرجها عن أصل وضعها فتفيد الدوام والاستمرار، كأن يكون الكلام في معرض المدح أو الذم، ومن ذلك قوله تعالى: «إِنَّ

الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ " (الانفطار: ١٣-١٤).

فالجملة الأولى سيقت في معرض المدح، والثانية سيقت في معرض الذم، والمدح والذم كلاهما قرينة، ولهذا فكلتا الجملتين قد خرجت عن أصل وضعها وهو الثبوت، وأفادت الدوام والاستمرار أي: إن الأبرار لفي نعيم دائم مستمر، في جحيم دائم مستمر والجملة الاسمية لا تفيد الثبوت بأصل وضعها ولا الدوام والاستمرار بالقرائن إلا إذا كان خبرها مفرداً أو جملة أما إذا كان خبرها جملة فعلية فإنها تفيد التجدد، فإذا قلت: والدولة تكرم العاملين من ابنائها»، كان معنى أن تكريم الدولة للعاملين من أبنائها أمر متجدد غير منقطع.

أما الجملة الفعلية فموضوعة أصلاً لإفادة الحدوث في زمن معين فإذا قلت: إلى أو «يعود الغريب إلى وطنه» الغريب إلى وطنه، لم يستفد السامع من الجملة الأولى إلا حدوث عودة

الغريب إلى وطنه في الزمن الماضي، ولم يستفد من الجملة الثانية إلا احتمال حدوث عودة الغريب إلى وطنه في الزمن الحاضر أو المستقبل، كما لم يستفد من الجملة الثالثة إلا حدوث عودة الغريب إلى وطنه في الزمن المستقبل وقد تفيد الجملة الفعلية الاستمرار التجديدي بالقرائن، كما في قول المتنبي مادحاً سيف الدولة:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

فالممدح هنا قرينة دالة على أن إتيان العزائم على قدر أهل العزم، وإتيان المكارم على قدر الكرام، وعظم صغار المكارم في عين الصغير وصغر العظائم في عين العظيم، إنما هو أمر مستمر متجدد على الدوام.

وقد ذكرنا آنفاً أن جملة الخبر لها ركنان: المسند إليه، والمسند، وأن ما زاد على ذلك في الجملة غير المضاف إليه وصلة الموصول فهو قيد. وقیود الجملة هي: أدوات الشرط، وأدوات النفي، والمفاعيل الخمسة، والحال والتمييز، والأفعال الناسخة، والتوابع الأربعة: النعت، والعطف، والتوكيد، والبدل.

وعلماء المعاني يقسمون الجملة إلى جملة رئيسية، وجملة غير رئيسية، والأولى هي المستقلة التي لا تكون قيداً في غيرها، والثانية ما كانت قيداً في غيرها، وليست مستقلة بنفسها.



الأصل في الخبر أن يلقي لأحد غرضين:

١ - إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة أو العبارة، ويسمى ذلك الحكم فائدة الخبر

٢ - إفادة المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم، ويسمى ذلك لازم الفائدة.

* * *

فالغرض الأول هنا وهو «فائدة الخبر» يقوم في الأصل على أساس أن من يلقي إليه الخبر، أو من يوجه إليه الكلام يجهل حكمه أي مضمونه، ويراد إعلامه أو تعريفه به.

وهذا الغرض الذي يسميه البلاغيون «فائدة الخبر» يتمثل في جميع الأخبار التي يبغى المتكلم من ورائها تعريف من يخاطبه بشيء أو أشياء يجهلها. كذلك يتمثل في الأخبار المتعلقة بالحقائق التي تشتمل عليها الكتب في العلوم والفنون المختلفة، أو الحقائق العلمية التي تلقى على المتعلمين.

من ذلك مثلاً هذا الخبر التاريخي عن معاوية بن أبي سفيان: «أسلم معاوية: مع أبيه عام الفتح، واستكتبه النبي - صلي الله عليه وسلم -، واستعمله عمر على الشام أربع سنين من خلافته، وأقره عثمان مدة خلافته نحو اثنتي عشرة سنة، وتغلب على الشام محارباً لعلي أربع سنين، فكان أميراً وملكاً على الشام نحو أربعين سنة. وكان حلياً حازماً، داهية عالماً بسياسة الملك، وكان حلمه قاهراً لغضبه، وجوده غالباً على منعه، يصل ولا يقطع».

فمثل هذا الخبر قد قصد به إفادة من يلقي إليه بمضمونه، أي بما اشتمل عليه من الحقائق التاريخية خلفاء الأمويين معاوية أبي سفيان حيث إسلامه، واستكتاب النبي له، ومدة ولايته وملكه على الشام، وأخلاقه، فالغرض الخبر هنا إذن هو فائدة الخبر»

أما الغرض الثاني من الخبر ما سماه البلاغيون **لازم الفائدة**، وهو ما يقصد المتكلم من ورائه أن يفيد مخاطبة إنه، أي المتكلم عالم بحكم الخبر أي مضمونه وفي الأمثلة التالية ما يوضح ذلك.

١ إنك لتكظم الغيظ، وتحلم الغضب، وتعفو وتصفح عن الزلة، وتستجيب لنداء المستغيث بك.

٢ وقال المتنبي مخاطباً سيف ومثنيا على شجاعته:

تدوس بك الخيل الوكور على الذرى *** وقد كثرت حول الوكور المطاعم

٣ وقال أحد الشعراء معاتباً:

وتغتابني في كل ناد تحله

وتزعم أنني لست كفننا لمثلكما

فالمتكلم في المثال الأول لا يقصد منه أن يفيد من يخاطبه شيئا مما تضمنه الكلام من الأحكام التي أسندها إليه من كظم الغيظ، والحلم ساعة الغضب، والعفو مع المقدرة، والاستجابة لنداء المستغيثين به؛ لأن ذلك يعلمه المخاطب عن نفسه قبل أن يعلمه المتكلم، وإنما يريد أن يبين له أنه أي المتكلم عالم بما تضمنه هذا الكلام.

والمتنبي وهو يخاطب سيف الدولة بالبيت السابق لا يقصد يخبره ويفيده بأنه يحارب أعداءه الروم كان يتبعهم ويطارد فلولهم بجيشه في قمم الجبال حيث وكور جوارح الطير فيقتلهم هناك ويصنع من جثثهم وليمة كبيرة متناثرة حول أوكارها أجل لا يقصد المتنبي ان يفيد مخاطبه علماً بمضمون بيته، لأن سيف الدولة لا يجهله، بل هو يعلمه عن نفسه قبل أن يعلمه المتكلم به، وإنما يريد المتنبي أن يبين لسيف الدولة أنه، المتنبي، عالم بمضمون الخبر الذي أورده في بيته.

وفي المثال الثالث لا يقصد الشاعر منه أن يفيد مخاطبه علماً بمضمون البيت الذي أسنده إليه، من اغتيابه له في كل مكان يكون فيه، ومن الزعم بأنه ليس كفننا له، لأن المخاطب يعلم أن ذلك قد حدث منه ويحدث، وإنما يبغى الشاعر من وراء إلقاء هذا الخبر على من يخاطبه به بأنه يعلم مضمونه ولا يجهله.

فالمخاطب إذن في كل مثال من الأمثلة الثلاثة لم يستفد علماً بالخبر نفسه، لأنه يعلمه مسبقاً ولا يجهله، وإنما استفاد أن المتكلم عالماً به ويسمى ذلك النوع من الخبر «لازم الفائدة».

ومن الأمثلة السابقة ونظائرها يمكن القول بأن الخبر «لازم الفائدة» يأتي في مواضع المدح والعتاب واللوم وما أشبه ذلك من كل موضع يأتي فيه إنسان ما عملاً ما، ثم يأتي شخص آخر فيخبره به لا على أساس أن المخاطب يجهله، وإنما على أساس أن المتكلم عالم بالحكم، أي بمضمون الخبر الذي أسنده إليه.

أغراض الخبر البلاغية:

عرفنا مما سبق أن الأصل في الخبر أن يلقي لغرضين هما: فائدة الخبر، ولازم الفائدة، كما عرفنا أن المتكلم في كل منها يهدف من وراء الخبر إلى إعلام المخاطب شيئاً لا يعرفه، سواء أكان هذا الشيء هو مضمون الخبر أو علم المتكلم بمضمونه.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الخبر ليس مقصوراً على هذين الغرضين الأصليين؛ فالواقع أنه بالإضافة إليها قد يلقي الخبر لأغراض أخرى بلاغية تفهم من السياق وقرائن الأحوال. ومن هذه الأغراض التي يخرج الخبر عن غرضيه الأصليين إليها:

١ - إظهار الضعف: وذلك نحو قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام: (رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً، وقول الشاعر:

إن الثمانين، وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان
وقول المتنبي في وصف مرضه:

عليل الجسم ممتنع القيام شديد السكر من غير المدام

وقول شاعر مريض يقارن بين حاله وحال آخر معافى من المرض:

الخطى عندك، إذ تقصرها، وثب وقفز

والخطى عندي إذ أوسعها، ضعف وعجز

٢ - الاسترحام والاستعطاف نحو قول إبراهيم بن المهدي مخاطباً المأمون:

أتيت جرماً شنيعاً وأنت للعفو أهل

فإن عفوت فمن وإن قتلت فعدل

وقول المتنبي وهو في محبسه مستعطفاً السلطان:

دعوتك عند انقطاع الرجا ء والموت مني كحبل الوريد

دعوتك لما براني البلاء وأوهن رجلي ثقل الحديد

وقول شاعر آخر:

فمالي حيلة إلا رجائي لعفوك إن عفوت وحسن ظني

يظن الناس بي خيراً وإنني لشر الناس إن لم تعف عني

٣ - إظهار التحسر على شيء محبوب: نحو قول المتنبي في رثاء جدته:

أتاها كتابي بعد يأس وترحة فماتت سروراً بي فمت بها غما

حرام على قلبي السرور فإنني أعد الذي ماتت به بعدها سما

وقوله في رثاء أبي شجاع فاتك:

الحزن يقلق والتجمل يردع والقلب بينها عصي طبع

يتنازعان دموع عين مسهد هذا يجيء بها وهذا يرجع!

وقول آخر يرثى عزيزاً عليه:

وأيقظت أجفاناً وكان لها الكرى ونامت عيون لم تكن قبل تهجع

وقول أبي فراس الحمداني عندما سمع بمرض أمه وهو في الأسر:

عليلة بالشام مفردة بات بأيدي العدا مغلها

تمسك أحشاءها على حرق تطفئها والهجوم تشعلها

تسأل عنا الركبان جايدة بأدمع ما تكاد تمهلها

٤ - المدح نحو قول زهير بن أبي سلمى:

وأبيض فياض يداه غمامة على معنفيه ما تغب فواضله

تراه إذا ما جننه متهللا كأنك تعطيه الذي أنت سائله
وقول المتنبي مادحًا سيف الدولة:

أرى كل ذي ملك إليك مصيره كأنك بحر والملوك جداول
إذا مطرت منهم ومنك سحائب فوابلهم ظل وطلبك وابل

ه - الفخر: نحو قول الفرزدق:

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا *** وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا
وقول جرير: إذا غضبت عليك بنو تميم **** رأيت الناس كلهم غضابا
ولآخر في الفخر بكثرة العدد:

وما تطلع الشمس إلا عند أولنا **** ولا تغيب إلا عند آخرنا
وللشريف الرضي:

لغير العلى مني القلي والتجنب *** ولولا العلى ما كنت في العيش أرغب
وقور: فلا الألحان تأسر عزمتي **** ولا تمكر الصهباء بي حين أشرب
ولا أعرف الفحشاء إلا بوصفها **** ولا أنطق العوراء والقلب مغضب

٦ - الحث على السعي والجد: كقول شوقي:

وما نيل المطالب بالتمني ***** ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم منال ***** إذا الإقدام كان لهم ركاب

وقوله:

أعدت الراحة الكبرى لمن تعبنا وفاز بالحق من لم يأله طلبا

وقول ابن نباتة السعدي:

يفوت ضجيع الترهات طلابه ويدنو إلى الحاجات من بات ساعيا

فإذا نظرنا إلى كل مثال من الأمثلة السابقة وجدنا أن المتكلم لا يقصد منه فائدة الخبر ولا لازم الفائدة، وإنما خرج به عن هذين الغرضين إلى غرض آخر بلاغي يفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال، كغرض المدح، أو الفخر، أو الاسترحام، أو إظهار التحسر، أو إظهار الضعف، أو الحث على السعي والجد.

وقد ذكرنا أن أحمد بن فارس في كتابه "الصاحبي في فقه اللغة" عقد باباً خاصاً لمعاني الكلام العشرة عند أهل العلم وعد منها "الخبر".

ولعل من المفيد ونحن بصدد الكلام عن أغراض الخبر الأصلية وأغراضه الأخرى التي تفهم من سياق الكلام أن نستكمل الشرح هنا بذكر المعاني التي يحتملها الخبر كما جاءت في كتاب "الصاحبي".

قال أحمد بن فارس: «والمعاني التي يحتملها لفظ الخبر كثيرة. فمنها التعجب، نحو: ما أحسن زيدا، والتمني، نحو: وددتك عندنا، والإنكار، نحو: ما له على حق، و«النفي» نحو: لا بأس عليك، و«الأمر» نحو قوله جل ثناؤه: (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء»، و«النهي»، نحو قوله تعالى: "لا يمسه إلا المطهرون»، و«التعظيم» نحو: سبحان الله، و«الدعاء»، نحو: عفا الله عنه، و«الوعد» نحو قوله جل وعز: «سنريهم آياتنا في الآفاق»، و«الوعيد» نحو قوله تعالى: (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)

وربما كان اللفظ خبراً والمعنى شرط وجزاء نحو قوله تعالى: (إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون» فظاهره خبر، والمعنى إنا إن كشف عنكم العذاب تعودوا. ومثله: «الطلاق مرتان»، المعنى من طلق امرأته مرتين فليمسكها بعدهما بمعروف أو يسرحها بإحسان.

والذي ذكرناه في قوله جل ثناؤه: «ذق إنك أنت العزيز الحكيم» هو تبيكيت. وقد جاء في الشعر مثله. وقال شاعر يهجو جريراً:

أبلغ جريراً وأبلغ من يبلغه أتى الأغر وأتى زهرة اليمن

فقال جريراً مبكناً له:

ألم تكن في وسوم قد وسمت بها من حان موعظة يا زهرة اليمن؟

ويكون اللفظ خبراً والمعنى دعاء وطلب، نحو: «إياك نعبد وإياك نستعين، معناه فأعنا على عبادتك. ويقول القائل: استغفر الله، والمعنى اللهم اغفر». قال الله جل ثناؤه: (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم». ويقول الشاعر:

استغفر الله ذنباً لست محصيه رب العباد إليه الوجه والعمل (١)

مما تقدم نرى أن ابن فارس قد أورد من المعاني التي يحتملها لفظ الخبر أحد عشر معنى، وأن إيراده لهذه المعاني إما على سبيل المثال أو على أنها أهم معاني الخبر التي يكثر تداولها في الكلام.

أضرب الخبر

مما سبق تعرفت على أغراض الخبر وعلمت أنها أمور تعود إلى المتكلم، أما هنا فسنعرض لأمر تكون في نفس المخاطب، فالمخاطب يكون حاله واحد من ثلاثة أحوال. الحالة الأولى: أن يكون المخاطب خالي الذهن عن الخبر، ويُلقى إليه الخبر خالياً من المؤكدات؛ لأنه كما سبق أن ذكرنا أن علم المعاني هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فلما كان حال المخاطب خلو ذهنه عن الخبر مطلقاً حسن أن يلقي إليه الخبر خالياً من المؤكدات، ومن أمثلة ذلك قولك: الدين المعاملة، فيتمكن الخبر في ذهن المخاطب لمصادفته إياه خالياً.

(١) كتاب الصحابي لأبي فارس ص ١٧٩.

الحالة الثانية: أن يكون المخاطب متردداً أو شاكاً في الخبر فيحسن بك أن تؤكد له الخبر لتزيل ما في نفسه من شك فتقول: لزيد عارف أو إن زيداً عارف، أكد الخبر بمؤكد واحد وهو اللام في الأول وإن في الثاني.

الحالة الثالثة: أن يكون المخاطب منكرًا للخبر أو عالماً بعكسه تماماً، وهذا يجب أن يؤكد لنفسه الكلام بأكثر من طريق فتقول: إني صادق، لمن ينكر صدقك ولا يبالغ في إنكاره، ومع النوع الثالث هذا تقول الخبر ولكن بصورة أخرى وهي، إني لصادق، فزدت من المؤكدات اللام فإن بالغ في إنكاره وادعى كذبك بالغت في مؤكداتك لتؤيد صدقك : فتقول والله إني لصادق.

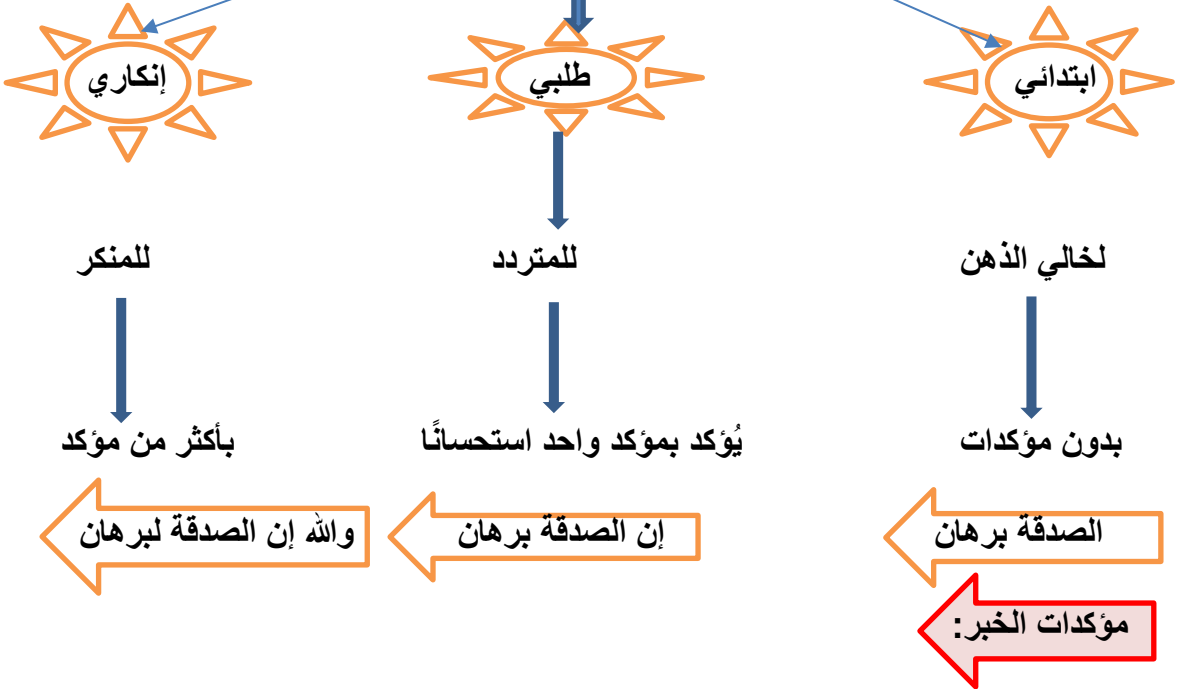
وعليه ورد قوله وتعالى: «وأضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون * قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون، قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) [يس: ١٣، ١٤]، حيث قال في المرة الأولى: (وإنا إليكم مرسلون) [يس: ١٤]، وفي الثانية: «إنا إليكم لمرسلون) [يس: ١٦].

ويؤيد ذلك جواب أبي العباس الكندي عن قول القائل: إني أجد في كلام العرب حشواً، يقولون عبد الله قائم، وإن عبد الله قائم، وإن عبد الله لقائم، والمعنى واحد، بأن قال: بل المعاني مختلفة، فعبد الله قائم إخبار عن قيامه، وإن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل، وإن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر.

ويسمى النوع الأول من الخبر ابتدائياً، والثاني طلبياً، والثالث إنكارياً.

إذن فأضرب الخبر ثلاثة:

أضرب الخبر



أدوات التأكيد اللغة العربية أدوات وطرق لا غنى لدارس البلاغة عن معرفتها، ليستعملها عند الحاجة، وهذه الأدوات كما ذكرها علماء النحو وعلماء البلاغة هي:

(إن)، ولام الابتداء، وضمير الفصل، والقسم، وإما الشرطية، وحرفا التنبيه (ألا وأما)، وإذ وأن وما ومن والباء وقد والسين، وسوف وتكرير النفي و(إنما) ونونا التوكيد.

وقد يخرج الكلام على هذه الوجوه التي يأتي عليها الخبر فيلقي الخبر لخالي الذهن بمؤكدات وللمنكر بدون مؤكدات وإليك الصور التي يأتي الخروج عليها.

الصورة الأولى تنزيل غير السائل منزلة السائل: إذا قدم في الكلام ما يلوح له بحكم الخبر فيستشرق له استشراق المتردد الطالب كقوله تعالى: «ولا تخطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون» [هود: ٣٧] ومنه قوله تعالى: (وما أبرئ نفسي إن النفس لذنبية . . .) [يوسف: ٥٣].

فالمخاطب بالآية الكريمة خالي الذهن ولم يتردد أو يتساءل عن السبب في عدم تبرئة نفسه، وكان نفسه استشرقت عن سبب الحكم فجاء الجواب حاسم حازم «إن النفس لأمارة بالسوء» [يوسف: ٥٣]، وفي المثال الأول أكدت الجملة الأخيرة «إنهم مغرَقون» [هود: ٣٧]، لأن قوله تعالى: (واصنع الفلك في بداية الآيات، يجعل نوحاً يتساءل في نفسه عما سيحدث للمعاندين؟ وما سبب صنع السفينة وليس هناك ماء؟ هذه تساؤلات ثارت في نفس نوح فاقترضت أن يلقي إليه الكلام مؤكداً.

ومنها قوله تعالى: «قال ينوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح» [هود: ٤٦] وكان الجملة الأولى أثارَت في نفس نوح سؤالا يا رب كيف إنه ابني؟ فأكد الخبر في حقه فصار مع كونه غير سائل في مقام السائل.

ويثني الإمام على هذا النوع من الكلام، وروي عن الأصمعي أنه قال: كنت أسير مع أبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر، وكانا يأتیان بسارا فيسلمان عليه، بغاية الإعظام، ثم يقولان: يا أبا معاذ: ما أحدثت؟ فيخبرهما وينشدهما ويسألانه ويكتبان عنه متواضعين له، حتى يأتي وقت الزوال، ثم ينصرفان. وأتياه يوماً فقالا: ما هذه القصيدة التي أحدثتها في مسلم بن قتيبة؟ قال: هي التي بلغتكم، قالوا: بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب، قال: نعم بلغني أن سلم بن قتيبة يتباصر بالغريب، فأحبيت أن أورد عليه ما لا يعرف، قالوا: فأنشدناها يا أبا معاذ، فأنشدهما:

بكرا صاحبي قبل الهجير إن ذاك النجاح في التكبير

حتى فرغ منها، فقال له خلف: لو قلت يا أبا معاذ مكان: إن ذاك النجاح التكبير، فالنجاح في التكبير كان أحسن، فقال بشار: إنما بنيتها أعرابية وحشية، فقلت: إن ذاك النجاح في التكبير، كما تقول الأعراب البدويون، ولو قلت: بكرا فالنجاح كان ذلك من كلام المولدين، ولا يشبه ذلك الكلام، ولا يدخل في معنى القصيدة، قال: فقام خلف فقبل بين عينيه، فهل كان هذا القول من خلف والنقد على بشار إلا للطف المعنى في ذلك وخفائه.

ومنه قول الشاعر:

قف دون حقك في الحياة مجاهداً إن الحياة عقيدة وجهاد

فالأصل أن يأتي الكلام خالياً من التوكيد، لأن المخاطب خالي الذهن من الحكم، ولكن لما تقدم في الكلام ما يشعر بنوع الحكم أصبح المخاطب متشوقاً لمعرفة، فنزل منزلة السائل المتردد الطالب، واستحسن إلقاء الكلام إليه مؤكداً جرياً على خلاف مقتضى الظاهر.

ومما وقع فيه التأكيد موقعاً غاية في الحسن وآية في البلاغة: عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجازي، ألا ترى أن النفس حينما تسمع هذا الكلام في جزئه الأول: عش ما شئت، اعلم ما شئت، أحبب من شئت، يثار فيها أسئلة فتأتي أجوبتها مؤكدة بمؤكد واحد لمساورة الشك في النفس، فتأس وتسكن.

الصورة الثانية: تنزيل غير المنكر منزلة المنكر: ويتحقق ذلك بظهور علامات الإنكار على غير المنكر، ويمثل البلاغيون له بقول الشاعر:

جاء شقيق عارضاً رمحاً إن بني عمك فيهم رماح

رأى الشاعر شقيقاً هذا وهو عائد إلى ديار عمه، وكانت حالته حالة المعجب بنفسه، الواضع لرمحه على عاتقه، وهذه الحالة تدل على عدم اكتراثه بغيره، وكأنه نزل رماح أبناء عمومته منزلة العدم فأنكرها، وإن لم يصرح بالإنكار، ولكن لظهور علامات الإنكار عليه نزل منزلة المنكر فألقى إليه الخبر مؤكداً، فخرج بالكلام عن مقتضى الظاهر فطابق مقتضى الحال، وهذا كثير في أقوال البلغاء كأن نقول للطالب اللاهي قبل الامتحان بساعات، إن الامتحان القريب، فالطالب يعلم بموعد الامتحان، ولكن لما صدر منه ما يخالف مقتضى علمه نزل منزلة المنكر، ومنه قولك لمن بعن والديه: لتعرفن أنهما لوالداك.

الصورة الثالثة: تنزيل المنكر منزلة غير المنكر: وفي ذلك كما ترى خروجاً بالكلام على مقتضى الظاهر، إذ أن المنكر بلقى إليه الخبر مؤكداً بعدة مؤكدات، ولكنك لتحققك من خبرك ولظهوره تنزل إنكاره منزلة العدم، فتقول لمن ينكر ضوء الشمس وهي في كبد السماء: الشمس ساطعة، فتشعره أن هذا الأمر الذي ينكره واضح الدلالة، بين المعالم، يدركه كل إنسان، وذلك كقولك لمنكر الإسلام: الإسلام حق، وعلى ذلك ورد قوله تعالى:

«قل هو الله أحد ([الإخلاص: ١] الله واحد، وقوله تعالى: (والهكم الله واحد) [النحل: ٢٢]، فالآيتان مكيتان وأهل مكة ينكرون الوحدانية، فكان مقتضى الظاهر أن يلقي إليهم هذا الخبر مؤكداً، ولكنه خرج عن مقتضى القاهر، والقي بدون مؤكدات، وفي ذلك إحياء بأن القضية واضحة المقام وليست بحاجة إلى براهين لتثبيتها، ومن أمثلة تنزيل المنكر منزلة غير المنكر قولك لمن ينكر أن العرب ذوو الفضل في حضارة الغرب: الحضارة الأوروبية مدينة لأمتنا في كل شيء، وقولك لمن يزعم الدين الإسلامي قيد المرأة وحرمة حقوقها: الإسلام دين الحرية والمساواة.

والأمثلة على ذلك عديدة ترشدك إلى أن ترك الجدل مع المنكر للأمر الظاهرة هو خير وسيلة لعودته إلى رشده، وفيها حث له ليتأمل ويعمل فكره.

الخلاصة

إن الخبر يخرج عن مقتضى الظاهر:

- ١- فينزل خالي الذهن منزلة المتردد في الحكم إذا تقدم في الكلام ما يشير إلى حكم الخير.
- ٢- ينزل غير المنكر منزلة المنكر، إذا ظهر عليه أمارات الإنكار.
- ٣- ينزل المنكر منزلة غير المنكر إذا كان لديه دلائل وشواهد لو تأملها لعاد إلى رشده وعدل عن إنكاره.

* * *

مؤكدات الخبر:

عرفنا من دراستنا لأضرب الخبر أن المخاطب الذي يلقي إليه الخبر إذا كان متردداً في حكمه حسن توكيده له ليتمكن مضمون الخبر من نفسه، وإذا كان منكراً لحكم الخبر وجب توكيده له على حسب إنكاره قوة وضعفاً.

والأدوات التي يؤكد بها الخبر كثيرة منها: إن، ولام الابتداء، وأما الشرطية، والسين، وقد، وضمير الفصل، والقسم، ونونا التوكيد، والحروف الزائدة، وأحرف التنبيه. وفيما يلي تفصيل وتوضيح لهذه الأدوات:

١ - "إن" المكسورة الهمزة المشددة النون، وهذه هي التي تنصب الاسم وترفع الخبر، ووظيفتها أو فائدتها التأكيد لمضمون الجملة أو الخبر، فإن قول القائل «إن الحياة جهاد» ناب مناب تكرير الجملة مرتين، إلا أن قولك «إن الحياة جهاد» أوجز من قولك: «الحياة جهاد، الحياة جهاد، مع حصول الغرض من التأكيد. فإن أدخلت اللام وقلت «إن الحياة لجهاد» ازداد معنى التأكيد، وكأنه بمنزلة تكرار الجملة ثلاث مرات. وهذا الإيجاز أو الاقتصاد الفاظ الحملة حصول الغرض من التوكيد هو الذي يعطي مثل هذه الجملة قيمتها البلاغية، على أساس أن البلاغة هي في مع الإيجاز.

ومن أمثلتها من القرآن الكريم قوله تعالى: «إن الله غفور رحيم» و(إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين)، و «إن الذين آمنوا ثم كفروا، ثم آمنوا ثم كفروا، ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم؟ ومن أحاديث الرسول: «إن المثبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، وقوله: «إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه، فلا خير فيه».

خلقت هواك كما خلقت هوى لها

ومن الشعر: إن التي زعمت فؤادك ملها

والنفس مولعة بحب العاجل

إني لأمل منك خيراً عاجلاً

من الناس إلا ما جنى لسعيد

وإن امرأ أمسى وأصبح سالمًا

٢ - "لام الابتداء": وفائدتها توكيد مضمون الحكم، وتدخل على المبتدأ، نحو: لأنت خير من عرفت، كما تدخل على خبر «إن» نحو قوله تعالى: "إن ربي لسميع الدعاء"، وعلى المضارع الواقع خبراً لأن لشبهه بالاسم نحو قوله تعالى: (وإن ربك ليحكم بينهم، وعلى شبه الجملة نحو: (وإنك لعلی خلق عظیم)

٣ - "أما الشرطية"، المفتوحة الهمزة المشددة الميم: وهي حرف شرط وتفصيل وتوكيد، نحو قوله تعالى: (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً)، ونحو قول الشاعر: ولم أر كالمعروف أما مذاقه فحلو وأما وجهه فجميل

وفائدة "أما" في الكلام أنها تعطيه فضل توكيد وتقوية للحكم، تقول مثلاً وزيد ذاهب، فإذا قصدت توكيد ذلك وأنه لا محالة ذاهب، وأنه بصدد الذهاب وعازم عليه قلت: «أما زيد فذاهب».

٤ - «السين»: وهي حرف يختص بالمضارع ويخلصه للاستقبال، والسين إذا دخلت على فعل محبوب أو مكروه أفادت أنه واقع لا محالة ووجه ذلك أنها تفيد الوعد أو الوعيد بحصول الفعل، فدخولها على ما يفى الوعد أو الوعيد مقتضى لتوكيده وتثبيت معناه.

فهي في مثل قوله تعالى: (أولئك سيرحمهم الله) مفيدة وجود الرحمة لا محالة، ولذلك فهي تؤكد هنا حصول فعل الوعد. كذلك هي في مثل قوله تعالى: (تبت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى نارا ذات لهب) تؤكد حصول فعل الوعيد الذي دخلت عليه وتثبت معناه بأنه كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين.

٥ - "قد": التي للتحقيق، نحو قوله تعالى: (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون)، فهي في مثل هذه الجملة تفيد توكيد مضمونها؛ أي أن فلاح المؤمنين الخاشعين في صلاتهم حق ولا محالة حاصل.

٦ - "ضمير الفصل": وهو عادة ضمير رفع منفصل، ويؤتي به للفصل بين الخبر والصفة، نحو «محمد هو النبي، فلو لم نأت بالضمير "هو" وقلنا محمد النبي» لاحتتمل أن يكون «النبي» خبراً عن محمد، وأن يكون صفة له، فلما أتينا بضمير الفصل «هو» تعين أن يكون "النبي"، خبراً عن المبتدأ وليس صفة له. فضمير الفصل على هذا الأساس يزيل الاحتمال والإبهام من الجملة التي يدخل عليها، وبالتالي يفيد ضرباً من التأكيد. ولهذا عُد من أدوات توكيد الخبر.

٧ - «القسم»: وأحرفه «الباء ، والواو، والتاء»، و «الباء» هي الأصل في أحرف القسم لدخولها على كل مقسم به، سواء أكان اسماً ظاهراً أو ضميراً، نحو: أقسم بالله ، وأقسم بك و «الواو» تختص بالدخول على الاسم الظاهر دون الضمير، نحو: "أقسم والله"، أما «التاء» فتختص بالدخول على اسم الله تعالى فقط، كقوله تعالى: (وتالله لأكيدن أصرامكم) والحروف التي تدخل على المقسم عليه، أي جواب القسم، أربعة (اللام، وإنّ، وما، ولا). فإذا كان المقسم عليه والذي يسمى جواب القسم مثبتاً فإن الحروف التي تدخل عليه هي (اللام، وإنّ)، نحو: والله لموت شريف خير من حياة ذليلة، ونحو قوله تعالى: «والعصر إنَّ الإنسان لفي خسر»

وإذا كان المقسم عليه أو جواب القسم منفيّاً، فإن الحروف التي تدخل عليه هي (ما، ولا)، نحو: والله ما العمل اليدوي مهانة، ونحو: والله لا قصرت في القيام بواجبي.

فالقسم على أي صورة من هذه الصور فيه ضرب من التأكيد، لأن فيه إشعاراً من جانب المقسم بأن ما يقسم عليه هو أمر مؤكد عنده لا شك فيه، وإلا لما أقسم عليه قاصداً متعمداً. ومن أجل ذلك عد البلاغيون القسم من مؤكدات الخبر.

٨ - "نونا التوكيد": وهما نون التوكيد الثقيلة، أي المشددة، ونون التوكيد الخفيفة، أي غير المشددة، وهما يدخلان على المضارع بشروط وعلى الأمر جوازاً، وقد اجتمعا في قوله تعالى حكاية على لسان امرأة عزيز مصر في قصة يوسف: (ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين)

٩ - «الحروف الزائدة»: وهي «إن» المكسورة الهمزة الساكنة النون ، و"أنّ" المفتوحة الهمزة الساكنة النون، و «ما»، و «لا»، و «من» و«الباء»، الجارتان . وليس معنى زيادة هذه الحروف أنها قد تدخل لغير معنى البتة، بل زيادتها لضرب من التأكيد.

فمثال «إن»: «ما إن قبلت ضيماً، والأصل «ما قبلت ضيماً، فدخول إن قد أكد معنى حرف النفي الذي قبله.

أما «أن» فتزاد توكيداً للكلام، وذلك بعد لماً بتشديد الميم، نحو قوله تعالى: (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً)، والمراد فلما جاء البشير...

و «ما» تزداد في الكلام لمجرد التأكيد، وهذا كثير في القرآن الكريم والشعر وسائر الكلام. ومثاله من القرآن قوله تعالى: «فإما تتقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم، لعلهم يذكرن».

وأصل تركيب "فإما تتقفنهم"، «فإن ما تتقفنهم» «فإن» حرف شرط يدل على ارتباط جملتين بعضها ببعض، و «ما» حرف زائد للدلالة على تأكيد هذا الارتباط في كل حال من الأحوال ومثاله من الشعر قول البحتري:

وإذا ما جفيت كنت حرياً أن أرى غير مصبح حيث أمسي

ومثاله من شعر البارودي في وصف بعض مظاهر شيخوخته من ضعف بصره وثقل سمعه: لا أرى الشيء حين يسبح إلا كخيال كأنني في ضباب

وإذا ما دُعيت حرت كأنني أسمع الصوت من وراء حجاب

فما قد زيدت بعد «إذا» في المثالين السابقين لتأكيد معنى هذا الظرف.

ومثاله من سائر الكلام «غضبت من غير ما جرم، أي من غير جرم، و «جنت لأمر ما»، فما زائدة للتأكيد، والمعنى على النفي وما جنت إلا لأمر. و «لا» تزداد مؤكدة ملغاة نحو قوله تعالى: (لنلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرن على شيء من فضل الله)، فلا زائدة، والمعنى (ليعلم أهل الكتاب . . .)، ونحو قوله تعالى: (فلا أقسم بمواقع النجوم)، فلا زائدة، والمعنى فأقسم بمواقع النجوم.

و «من» قد تزداد توكيداً لعموم ما بعدها في نحو ما "جاءنا من أحد" فإن أحداً صيغة عموم، بمعنى ما جاءني أي أحد. ولا تكون «من» زائدة للعموم إلا إذا تقدمها نفي أو نهي أو استفهام بـ «هل»؛ فالنفي نحو قوله تعالى: (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها)، وقوله (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت)، والنهي نحو «لا تهمل من غذاء عقلك»، والاستفهام

نحو قوله تعالى (هل ترى من فطور؟) ونحو هل من شاعر بينكم؟ و «من، هذه التي تزداد توكيداً لعموم ما بعدها نفياً كان أو نهياً أو استفهاماً يكون الاسم الواقع بعدها إمّا فاعلاً أو مفعولاً أو مبتدأ كما في الأمثلة السابقة.

والباء، ومن استعمالاتها أن تزداد لتوكيد ما بعدها، وقد تزداد كثيراً في الخبر بعد «ليس وماء النافيتين، وعندئذ تكون زيادتها لتوكيد نفي ما بعدها، وذلك نحو قوله تعالى: (وما الله بغافل عما تعملون)، وقوله تعالى أيضاً: «فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر". وقول معن بن أوس:

ولست بماش ما حبيت لمنكر من الأمر لا يمشي لمثله مثلي

فزيادة الباء هنا إنما هو لتأكيد معنى النفي؛ أي تأكيد نفي ما بعدها.

١٠ - «حروف التنبيه». ومما يُزاد أيضاً حروف التنبيه، ومنها "ألا وأما" بفتح الهمزة والتخفيف. و«ألا» قد تزداد للتنبيه، وعندئذ تدل على تحقق ما بعدها، ومن هنا تأتي دلالتها على معنى التأكيد، وذلك نحو قوله تعالى: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

و «أما» حرف استفتاح وهي بمنزلة «ألا» في دلالتها على تحقق ما بعدها تأكيداً، ويكثر مجيئها قبل القسم، لتنبيه المخاطب على استماع القسم وتحقيق المقسم عليه، نحو قول أبي صخر الهذلي:

أما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمره الأمر

لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى أليفين منها لا يروعهما النفر

* * *



من دراستنا السابقة لأضرب الخبر أدركنا أن المخاطب على حسب تخيل المتكلم أو القائل إن كان خالي الذهن ألقى إليه الخبر غير مؤكد، وإن كان متردداً شاكاً في مضمونه طالباً معرفته حسن توكيده له، وإن كان منكرًا للخبر وجب توكيده له بمؤكد أو أكثر على حسب درجة إنكاره قوة وضعفًا. وإلقاء الكلام أو الخبر بهذه الطريقة المتدرجة على حسب جهل المخاطب بمضمون الخبر أو شكه فيه أو إنكاره له هو ما يقتضيه الظاهر، ولكن إيراد الكلام أو الخبر لا يكون دائما وأبداً جارياً على مقتضى الظاهر، فقد تجد اعتبارات تدعو المتكلم إلى أن يورد الكلام أو الخبر على صورة تخالف الظاهر أو على صورة تخرج به عن مقتضى الظاهر كما يقول البلاغيون.

ومن الاعتبارات التي يلحظها المتكلم وتدعوه إلى الخروج بالكلام عن مقتضى الظاهر ما يلي:

- أن ينزل خالي الذهن منزلة المتردد الشاك إذا تقدم في الكلام من يشير إلى حكم الخبر ومضمونه. ومن هذا الضرب من الكلام قوله تعالى: «وما أبرئ نفسي إن النفس لأماراة بالسوء»

فالتأمل في هذه الآية الكريمة يجد أن المخاطب بها خالي الذهن من الحكم أو من مضمون قوله تعالى: «إن النفس لأماراة بالسوء، ولكن هذا الحكم لما كان مسبوقةً بجملة (وما أبرئ نفسي)»، وهي في مضمونها تشير إلى أن النفس محكوم عليها بشيء غير محبوب أو مرغوب فيه، أصبح المخاطب بقوله تعالى (إن النفس لأماراة بالسوء، متطلعاً إلى نوع هذا الحكم، الذي يجهله ولا يدري حقيقته، ومن أجل ذلك نُزل هذا المخاطب منزلة المتردد الشاك، وألقى إليه الخبر مؤكداً استحساناً.

ومن أمثلة هذا النوع من التنزيل قوله تعالى: "يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم" وقوله تعالى: (وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) وقوله تعالى أيضاً: «ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون»

ومن أمثله في الشعر قول عنتره:

لله در بني عيس لقد نسلوا من الأكارم ما قد تنسل العرب

وقول أبي الطيب المتنبي:

ترفق أيها المولى عليهم فإن الرفق بالجاني عتاب

٢ - أن يجعل غير المنكر كالمنكر لظهور أمارات الإنكار عليه، ومثال ذلك قوله تعالى: "ثم إنكم بعد ذلك لميتون«؛ فالمخاطبون بهذه الآية الكريمة لا ينكرون حقيقة الموت بالنسبة للإنسان، وأنه مهما طال أجله فإن مصيره إلى الموت والفناء، وعلى ما يقتضيه الظاهر كان يجب أن يلقى الكلام إليهم خاليا من التأكيد، ولكننا مع ذلك نرى أن الكلام قد خرج عن مقتضى الظاهر وألقي إليهم مؤكداً. فما السبب في ذلك؟

السبب ظهور أمارات الإنكار عليهم، فإن نسيانهم للموت وتكالبهم على مطالب العيش كأنهم مخلدون أبداً، وعدم بذلهم في الحياة الدنيا ما ينفعهم في الآخرة، كل هذه بوادر منهم: تدل على إنكارهم لحقيقة الموت، ومن أجل ذلك نزلوا منزلة المنكرين، وألقي الخبر إليهم مؤكداً بمؤكدين هما «إن» و «لام الابتداء»

ومثال ذلك أيضاً قولك لمن يعق والديه ولا يطيعهما: «إن بر الوالدين لواجب»، فالمخاطب بهذا الكلام لا ينكر أن بر الوالدين واجب ولا يداخله شك في ذلك. وكان مقتضى الظاهر أن يلقى إليه الخبر غير مؤكد، ولكن عقوقه لوالديه، وغلظته في معاملتهما، وعدم إطاعتها، كل ذلك اعتبر من علامات الإنكار، ولذلك نزل الجاحد المنكر وألقي الخبر إليه مؤكداً بمؤكدين وجوباً، خروجاً عن مقتضى الظاهر:

ومثاله أيضاً من الشعر قول حجل بن نضلة القيسي:

جاء شقيق عارضاً رمحه إن بني عمك فيهم رماح

فشقيق هذا الرجل لا ينكر رماح بني عمه، ولكنه مع ذلك يأتي إليهم عارضاً شاهراً رمحه مدلاً بنفسه وشجاعته عليهم كأنه يعتقد أنهم عزل من السلاح. فمجيبه على هذه الحال

علامة على إنكاره وجود السلاح مع بني عمه، ولذلك أنزله منزلة المنكر، وبالتالي ألقى الخبر إليه مؤكداً وقيل له إن بني عمك فيهم رماح.

٣ - أن يجعل المنكر كغير المنكر، إن كان لديه شواهد وأدلة لو تأملها لعدل عن إنكاره.

ومثال ذلك قوله تعالى: (والهكم إله واحد) ففي هذه الآية الكريمة نرى الله جل شأنه يوجه الخطاب إلى المنكرين لوحديته، وكان مقتضى الظاهر يُوجب إلقاء الخبر على المنكرين مؤكداً، ولكننا نرى الخبر في الآية قد خرج عن مقتضى الظاهر، فألقي إلى المنكرين مجرداً من التوكيد، كما يلقى إلى غير المنكرين، فما السبب في ذلك؟

السبب أن بين أيدي المنكرين لوحديته الله من الأدلة الساطعة والشواهد المقتعة ما لو تدبروه وعقلوه لزال إنكارهم ولحل محله اليقين والاعتناع بوحديته الله، ولذلك لم يكثرث الله بإنكارهم عند توجيه الخطاب إليهم، وأنزل هؤلاء المنكرين منزلة غير المنكرين لوجود الدلائل التي لو تأملها المنكر لاقنتع وكف عن إنكاره.

وأمثلة هذا النوع كثيرة، كأن تقول لمن يجحد فضل العلم: «العلم نافع»، ولمن ينكر ضرر الجهل: «الجهل ضار»، ولمن ينكر ما يسببه الفراغ من الفساد والإفساد: «الفراغ مفسدة»، وهكذا . . .

وبعد فلعلنا نرى في الأمثلة الكثيرة التي أوردناها عن أضرب الخبر وعن خروج الكلام عن مقتضى الظاهر ما يوضح لنا القيمة البلاغية لأساليب الخبر المختلفة، تلك القيمة التي تستمد عناصرها دائماً من مطابقة الكلام لحال المخاطبين.

* * *

الإنشاء وأقسامه

في المبحث السابق عرضنا للخبر فاستوفينا القول عنه من حيث مفهومه، وأضربه، وأغراضه الأصلية، ومؤكداته، وأغراضه الأخرى التي يحتملها لفظه. والآن ننتقل إلى قسيم الخبر، أو إلى القسم الثاني من الكلام، وهو «الإنشاء»، فنفصل القول فيه.

وإذا كان الإنشاء قسيم الخبر، وكان الخبر هو ما يحتمل الصدق والكذب، فإن الإنشاء إذن هو الكلام الذي لا يحتمل الصدق والكذب لذاته)، وذلك لأنه ليس لمدلول لفظه قبل النطق به وجود خارجي يطابقه أو لا يطابقه.

فالمعري مثلاً عندما يقول:

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى إني أخاف عليكم أن تلتقوا

قد استعمل أحد أساليب الإنشاء وهو أسلوب النهي في قوله: «لا تظلموا الموتى». ونحن لا يمكننا هنا أن نقول إن المعري صادق أو كاذب في نهيه عن ظلم الموتى، وذلك لأنه لا يعلمنا بحصول شيء أو عدم حصوله، وليس لمدلول لفظه قبل النطق به وجود خارجي يمكن أن يقارن به، فإن طابقه قيل: إنه صادق، أو خالفه قيل: إنه كاذب.

ومثل هذا القول ينطبق على سائر أساليب الإنشاء من أمر واستفهام وتمن ونداء، فليس لمدلول أي لفظ منها قبل النطق به وجود خارجي يعرض عليه مدلوله ويقارن به، فإن طابقه قيل: إنه صادق، أو خالفه قيل: إنه كاذب.

وعدم احتمال الأسلوب الإنشائي للصدق والكذب إنما هو بالنظر إلى ذات الأسلوب بغض النظر عما يستلزمه، وإلا فإن كل أسلوب إنشائي يستلزم خبراً يحتمل الصدق والكذب.

فقول القائل: «اجتهد» يستلزم خبراً هو «أنا طالب منك الاجتهاد»، وقوله: «لا تكسل، يستلزم خبراً هو: «أنا طالب منك عدم الكسل وهكذا . . .

فالخبر الذي يستلزمه الأسلوب الإنشائي ليس مقصوداً ولا منظوراً إليه، وإنما المقصود والمنظور إليه هو ذات الأسلوب الإنشائي، وبذلك يكون عدم احتمال الإنشاء الصدق والكذب إنما هو بالنظر إلى ذات الإنشاء

أقسام الإنشاء:

والإنشاء قسمان: طلبي وغير طلبي.

- فالإنشاء الطلبي هو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب وهو خمسة أنواع على الوجه التالي:

١ - الأمر: نحو قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا.»

٢ - النهي : نحو قوله تعالى: (ولا تصغر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً)

٣ - الاستفهام: نحو قوله تعالى: (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟؟)

٤ - التمني: نحو قوله تعالى: «يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون؟»

٥ - النداء: نحو قوله تعالى: «يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا.»

هذه هي أساليب الإنشاء الطلبي الخمسة، وكل واحد منها لا يحتمل صدقاً ولا كذباً، وإنما يطلب به حصول به شيء لم يكن حاصلًا وقت الطلب؛ ولذلك يسمى الإنشاء فيها طلبياً.

ب - أما الإنشاء غير الطلبي: فهو ما لا يستدعي مطلوباً. وله أساليب وصيغ كثيرة منها :

١ - صيغ المدح والذم من مثل: نعم وبنس، وحبذا ولا حبذا.

وفيما يلي أمثله لهذه الصيغ:

قال زهير:

نعم امرأ هرم لم تعر نائبة إلا وكان لمرتاع لها وزرا

وقال تعالى: "ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابذوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان"

وقال جرير:

يا حبذا جبل الريان من جبل وحبذا ساكن الريان من كانا

وحبذا نفحات من يمانية تأتئك من قبل الريان أحيانا

وقال شاعر

ألا حبذا عاذري في الهوى ولا حبذا العاذل الجاهل

٢ - التعجب : وهو تفضيل شخص من الأشخاص أو غيره على اضرابه في وصف من الأوصاف. والتعجب يأتي قياسيا بصيغتين: "ما أفعله، أفعل به"
فمن الصيغة الأولى قول شقران:

أولئك قوم بارك الله فيهم على كل حال، ما أعف وأكرما!

ومن الصيغة الثانية: قوله تعالى (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا).

٣ - القسم : ويكون بأحرف ثلاثة تجر ما بعدها وهي والباء ، والواو و التاء»، كما يكون بالفعل "أقسم"، أو ما في معناه من مثل "أحلف".

فالباء هي الأصل في أحرف القسم الثلاثة، وهي تدخل على كل مقسم به، سواء أكان اسماً ظاهراً أو ضميراً، نحو «أقسم بالله» و"أقسم بك".

و «الواو» فرع عن الباء، وتدخل على الاسم الظاهر فقط، نحو قوله تعالى : (والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى) .

و «التاء» فرع من الواو، بمعنى أنها لا تدخل على كل الأسماء الظاهرة، وإنما تدخل على اسم الله تعالى فقط، نحو قوله تعالى: «تالله لأكيدن اصنامكم»

ومن صيغ القسم التي ترد كثيراً في الأساليب العربية (لعمر)، مضافة إلى اسم ظاهر أو ضمير مثل "لعمر الله» و «لعمرك"، والتقدير: لعمر الله ، ولعمرك قسمي أو يميني أو ما أحلف به، وذلك نحو قول معن بن أوس :

لعمرك ما أدري وإني لأوجل على أينما تعدو المنية أول

وقول ابن الرومي:

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة إذا زال عن نفس البصير غطاؤها

وكيف بقاء العيش فيها وإنما ينال بأسباب الفناء بقاؤها؟

٤ - الرجاء: ويكون بحرف واحد هو "لعل" وبثلاثة أفعال هي: عسى، وحرى، واخلولق.

ولعل، التي تعد من صيغ الإنشاء غير الطلبي التي تفيد الرجاء، نحو قول ذي الرمة:

لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفي شجي البلابل

أما لعل، التي تكون بمعنى «كي»، نحو قوله تعالى: (لعلكم تتقون، ولعلكم تذكرون، ولعله يتذكر، أي كي تتقوا، وكي تتذكروا، وكي يتذكر، وكذلك لعل، التي بمعنى «ظن»، نحو قول امرئ القيس:

وبدلت قرحًا داميًا بعد صحة **** لعل منايانا تحولن أبوسا

فإن لعل، في هاتين الحالين لا تفيد الرجاء، وبالتالي لا تعد من صيغ الإنشاء غير الطلبي. ومن أمثلة أفعال الرجاء قوله تعالى: "عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده"، وقول الشاعر:

عسى فرج يأتي به الله إنه **** له كل يوم في خليفته أمر

وقول الأعشى:

إن يقل هن من بني عبد شمس **** فحرى أن يكون ذاك، وكانا

ونحو "اخلولقت السماء أن تمطر"، بمعنى (عسى).

٥ - صيغ العقود: من نحو قولك: بعت، واشتريت، ووهبت، وقولك لمن أوجب لك الزواج "قبلت هذا الزواج".

والفرق بين الإنشاء الطلبي وغير الطلبي، أن الإنشاء الطلبي هو ما يتأخر وجود معناه عن وجود لفظه، فإذا أمرت الأم ولدها قائلة: «اغسل يديك وفمك قبل الأكل وبعده»، فإن لفظ الأمر اغسل، قد سبق إلى الوجود قبل وجود معناه، أي قبل قيام المأمور، بتنفيذ ما أمر به وهو غسل اليدين والفم». ومن هنا قيل إن الإنشاء الطلبي هو ما يتأخر وجود معناه عن وجود أو هو ما يسبق وجود لفظه على وجود معناه.

أما الإنشاء غير الطلبي فهو ما يقترن فيه الوجودان، بمعنى أن يتحقق وجود معناه في الوقت الذي يتحقق فيه وجود لفظه، أي في الوقت الذي يتم اللفظ به، فإذا قال شخص لآخر زوجتك ابنتي، فقال الآخر: «قبلت هذا الزواج، فإن معنى الزواج أو وجوده يتحقق في وقت التلفظ بكلمة القبول.

والإنشاء غير الطلبي ليس من مباحث علم المعاني، وذلك لقلّة الأغراض البلاغية التي تتعلق به من ناحية، ولأن أكثر أنواعه في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء من ناحية أخرى.

أما الإنشاء الذي هو موضع اهتمام البلاغيين، لاختصاصه بكثير من الدلالات البلاغية فهو «الإنشاء الطلبي» والذي ننتقل الآن لدراسته بشيء من التفصيل.

الإنشاء الطلبي

عرفنا مما سبق أن الإنشاء قسيم الخبر، وإذا كان الخبر هو كل كلام يحتمل الصدق والكذب، فإن الإنشاء على عكسه هو ما لا يحتمل الصدق والكذب من الكلام.

وعلى حد تعريف البلاغيين هو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل في وقت الطلب، أو هو كما يقولون بعبارة أخرى: ما يتأخر وجود معناه عن وجود لفظه.

وأهم أنواع الإنشاء الطلبي، كما ذكرنا آنفاً، خمسة: «الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والنداء». نقول ذلك لأن من أنواع الإنشاء الطلبي أيضاً «العرض والتحريض»، ولكن الأنواع الخمسة الأولى أكثر استعمالاً وحملًا لثتى الدلالات واللطائف البلاغية.

والعرض أدواته ألا بتخفيف اللام، والتحضيض وأداته "هلاً، ويجمعهما التثنية على الفعل إلا أن التحضيض فيه زيادة توكيد وحث، وكل واحد منهما طلب، فالمتكلم يطلب من المخاطب أن يحدث الفعل الذي بعد أداة العرض والتحضيض، والعرض طلب مع لين ورفق، والتحضيض مع حث وإزعاج، ولكل منهما مواضع تليق به.

فمثال العرض قول الشاعر:

يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما **** قد حدثوك فما راء كمن سمعا؟

ومن التحضيض قول الشاعر:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك **** إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

ويأتي التحضيض في مثل قول: عبيد بن الأبرص الأسدي ردًا على امرئ القيس عندما هدد وأندر قبيلة عبيد لقتلها حجرًا والده قال عبيد بن الأبرص:

يا ذا المخوفنا بقت ل أبيه إذلالاً وحيناً

هلا على حجر بن أم قطام تبكي لا علينا؟

هلا سألت جموع كن دة يوم ولوا: أين أيننا؟

أولاً.. الأمر:

- وهو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام. فالأمر أعلى منزلة ممن يخاطبه أو يوجه الأمر إليه، سواء أكان أعلى منزلة منه في الواقع أم لا.
- وللأمر أربع صيغ تنوب كل منها مناب الأخرى في طلب أي فعل من الأفعال على وجه الاستعلاء والإلزام. وهذه هي:

أ - فعل الأمر: نحو قوله تعالى: «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة؟ وقوله: «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها؟»

ونحو قول الشاعر:

ذريني فإن البخل لا يخلد الفتى **** ولا يهلك المعروف من هو فاعله

وقول شاعر آخر يطلب من شباب العروبة أن يعملوا لمجد قومهم:

وانشر لقومك ما انطوى من مجدهم *** وأعد فخار جدودك القدماء

هم ورثوك المجد أبيض زاهراً *** فاحمله مثل الشمس للأبناء

ب - المضارع المقرون بلام الأمر: نحو قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل فاكذبوه، وليكتب بينكم كاتب بالعدل» وقوله: «فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف".

ونحو قول أبي الطيب المتنبي في مدح سيف الدولة:

كذا فليسر من طلب الأعادي ***** ومثل سراك فليكن الطلاب

وقول أبي تمام راثياً بني حميد الطوسي:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر *** فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

ج - اسم فعل الأمر: ومنه «عليكم» اسم فعل بمعنى "الزموا "

نحو قوله تعالى: "عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم»،

ونحو قول الأخطل التغلبي:

فعليك بالحجاج لا تعدل به *** أحداً إذا نزلت عليك أمور

ومنه «بله» بمعنى "دع" كقول الشاعر في صفة السيوف:

تذر الجماجم ضاحيا هاماتها بله الأكف كأنها لم تخلق

ومنه «رويدا» بمعنى: أمهله، كقول الشاعر:

رويد الذي محضته الود صافيا إذا ما هفا حتى يظل أخاً لكا

د - المصدر النائب عن فعل الأمر: نحو قوله تعالى: (وبالوالدين إحساناً) بمعنى وأحسنوا إلى الوالدين إحساناً، ونحو قوله تعالى أيضاً: (وإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب)،

فأصله فاضربوا الرقاب ضرباً، فحذف فعل الأمر وقدم المصدر فناب عنه مضافاً إلى المفعول، وضرب الرقاب عبارة عن القتل، وذلك أن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبتة. ونحو: أيها القوم استجابة لصوت الواجب، وتلبية لنداء الضمير، وإقداماً في مواقف الشجاعة، ودفاعاً عن الوطن بكل ما أوتيتم من قوة.

ونحو قول قطري بن الفجاءة:

فصبراً في مجال الموت صبراً فما نيل الخلود بمستطاع

* * *

خروج الأمر عن معناه الأصلي:

ولكن الأمر قد يخرج عن معناه الحقيقي، وهو طلب الفعل من الأعلى للأدنى على وجه الوجوب والإلزام، للدلالة على معان أخرى يحتملها لفظ الأمر، وتستفاد من السياق وقرائن الأحوال. ومن هذه المعاني:

١ - الدعاء: وهو الطلب على سبيل الاستغاثة والعون والتضرع والعتو والرحمة وما أشبه ذلك. ويسميه ابن فارس «المسألة»، وهو يكون بكل صيغة للأمر يخاطب بها الأدنى من هو أعلى منه منزلة وشأناً، نحو قوله تعالى: (ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفرنا سيناتنا وتوفنا مع الأبرار).

ونحو قول المتنبى مخاطباً سيف الدولة:

ولا تعطين الناس ما أنا قائل

أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك

وقوله:

بشعري أتك المادحون مرددا

أجزني إذا أنشدت شعراً فإنما

أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

ودع كل صوت غير صوتي فإنما

٢ - الالتماس: وهو طلب الفعل الصادر عن الأنداد والنظراء المتساوين قدرا ومنزلة، نحو

قول الشاعر محمود سامي البارودي:

عن ملامي وخلياتي لما بي

يا نديمي من «سرنديب» كفاً

أو أعيدا إلى عهد الشباب

يا خليلي خلياني وما بي

ونحو قول شاعر يوجه الخطاب إلى صاحبه:

ر ومن روعة الضحى والمساء

يا مزاجاً من رقة الزهر والفج

في خيالي منوراً كالرجاء

بلبلي التغريد صوتك يسري

أنطق الصخر أرتقي للسماء

شجعيني على الجهاد تريني

مقيما يا ربة الإيحاء

علميني معنى الطلاقة والخلد

ت وألقي على ثوب الرضاء

طهريني بفيض قدسك ما استطع

لك شعراً يموج موج الضياء

وارفعيني إلى سمائك أنشد

كل لحن معبر عن وفائي

وأفيضي على بالوحي أبداع

فالأمر في كل هذه الأبيات قد خرج عن معناه الحقيقي إلى الالتماس لأن الشاعر وصاحبه رفيقان يستويان قدرا ومنزلة.

٣ - التمني: وهو طلب الأمر المحبوب الذي لا يرجى وقوعه إما لكونه مستحيلًا، وإما لكونه ممكنًا غير مطموح في نيته، نحو قول عنترة العبسي:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحًا دار عبلة واسلمي

- وقول امرئ القيس:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح، وما الإصباح منك بأمثل

وقول أبي العلاء المعري:

فيا موت زر إن الحياة ذميمة ويا نفس جدي إن دهرك هازل

٤ - النصح والإرشاد: وهو الطلب الذي لا تكليف ولا إلزام فيه، وإنما هو طلب يحمل بين طياته معنى النصيحة والموعظة والإرشاد، نحو قول أحد الحكماء لابنه: «يا بني استعذ بالله من شرار الناس، وكن من خيارهم على حذر». ومنه قول الشاعر محمود سامي البارودي:

فانهض إلى سهوات المجد معتليًا فالباز لم يأو إلا عالي القلل

وكن على حذر تسلم، فرب فتى ألقى به الأمن بين اليأس والوجل

ودع من الأمر أدناه لأبعده في لجة البحر ما يغني عن الوشل

واخش النميمة واعلم أن صاحبها يصلحك من حرها نارًا بلا شعل

ومن الأمر الذي خرج إلى النصح والإرشاد أيضًا الأبيات التالية:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

شاور سواك إذا نابتك نائبة يومًا، وإن كنت من أهل المشورات

واخفض جناحك إن منحت إمارة وارغب بنفسك عن ردى اللذات

وأفعل كفعل الفتية القـدراء

فأربأ بنفسك أن يضيمك ضائم

٥ - التخيير: وهو أن يطلب من المخاطب أن يختار بين أمرين أو أكثر، مع امتناع الجمع بين الأمرين أو الأمور التي يطلب إليه أن يختار بينها، نحو: «تزوج بثينة أو أختها»؛ فالمخاطب هنا مخير بين زواج بثينة أو أختها، ولكن ليس له أن يجمع بينها. ومن هذا الأمر الذي يستفاد منه التخيير قول بشار بن برد:

مقارف ذنب مرة ومجانبه

فعض واحدًا أو صل أخاك فاته

وقول مهيار الديلمي:

أمين الغيب أو عيش الوحاد

وعش أما قرين أخ وفي

٦ - الإباحة: وتكون الإباحة حيث يتوهم المخاطب أن الفعل محظور عليه، فيكون الأمر إذنا له بالفعل، ولا حرج عليه في الترك، وذلك نحو: قوله تعالى في شأن الصائمين: (كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر).

الأمر الذي خرج المعنى فيه إلى الإباحة قول أبي فراس معاتبا سيف الدولة من قصيدة بعث بها إليه وهو أسير في بلاد الروم:

وقربي عنده ما دام قرب

فدت نفسي الأمير، كأن حظي

وأصبح بيننا بحر و(درب)

فلما حالت الأعداء دوني

ويبلغني اغتيابك ما يغيب

ظللت تبدل الأقوال بعدي

مليء بالثناء عليك رطب

فقل ما شئت في فلي لسان

تجدني في الجميع كما تحب

وعاملني بإنصاف وظلم

٧ - التعجيز: وهو مطالبة المخاطب بعمل لا يقوى عليه، إظهارًا لعجزه وضعفه وعدم قدرته، وذلك من قبيل التحدي، نحو قوله تعالى: (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن

تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان» ، ونحو قوله تعالى في شأن من يرتابون في نزول القرآن على الرسول : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فليس المراد طلب إتيانهم بسورة من مثل القرآن الكريم لأنه محال عليهم أن يأتوا بسورة من نوعه ، وإنما المراد هو تحديدهم وإظهار عجزهم .

ومن الأمر الذي خرج إلى التعجيز قول الطغرائي:

حب السلامة يثني هم صاحبه عن المعالي ويغري المرء بالكسل
فإن جنحت إليه فاتخذ نفقاً في الأرض، أو سلما في الجو فاعتزل

وقول آخر:

أروني بخيلا طال عمراً ببخله وهاتوا كريماً مات من كثرة البذل

٨ - التهديد : ويكون باستعمال صيغة الأمر من جانب المتكلم في مقام عدم الرضا منه بقيام المخاطب بفعل ما أمر به تخويفاً وتحذيراً له . ويسميه ابن فارس «الوعيد»، نحو قوله تعالى: «اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير»، فالأمر هنا موجه لمن يلحدون في آيات الله، وكقوله أيضاً: فتمتعوا فسوف تعلمون)، وقوله:(قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار).

ومن أمثله شعراً:

إذا لم تخش عاقبة الليالي *** ولم تستحي فاصنع ما تشاء

٩ - التسوية: وتكون في مقام يتوهم فيه أن أحد الشيين أرجح من الآخر، نحو قوله تعالى: (انفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم) فقد يظن أو يتوهم أن الإنفاق طوعاً من جانب المأمورين هنا أرجح في القبول من الإنفاق كرهاً، ولذلك سوي بينها في عدم القبول. ونحو قوله تعالى أيضاً: (اصبروا أو لا تصبروا)، فليس المراد في الآيتين الأمر بالإنفاق أو الصبر، وإنما المراد هو التسوية بين الأمرين.

ومثله من الشعر قول المتنبي:

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم
بين طعن القنا وخفق البنود

فالمعيشة العزيزة والموت الكريم كلاهما سواء، ولا أحد من الأمرين يرجح الآخر.

١٠ - الإهانة والتحقير: ويكون بتوجيه الأمر إلى المخاطب بقصد استصغاره والإقلال من شأنه والإضرار به وتبكيته، نحو قوله تعالى: " ذق إنك أنت العزيز الكريم " وقوله تعالى: على لسان موسى مخاطباً السحرة: (ألقوا ما أنتم مُلقون).

ومثله من الشعر قول جرير في هجاء الفرزدق:

خذوا كحلا ومجمرة وطرّاً
فلمستم يا فرزدق بالرجال
وشمّوا ريح عيبكم فلمستم
بأصحاب العناق ولا النزال

تلك أهم المعاني التي يتحملها لفظ الأمر ويخرج عن معناه الأصلي للدلالة عليها، ولكن ابن فارس قد ذكر في كتابه الصحابي بعض معان أخرى يتحملها لفظ الأمر وإن كانت قليلة الاستعمال، وفيما يلي إشارة إليها:

١ - التكوين: ويسمى بعض البلاغيين التسخير»، وذلك حيث يكون الأمر مسخرًا منقاداً لما أمر به، نحو قوله تعالى: «كونوا قردة خاسئين»، أي صاغرين مطرودين، فما أمروا به، وهو أن يكونوا قردة، لم يكن في مقدورهم أن يفعلوه، ولكنهم وجدوا قدرة الله قد تسلطت عليهم فحولتهم من أناسي إلى قردة دون أن يكون لهم يد فيما حل بهم وذلك هو معنى التكوين والتسخير.

٢ - التلهيف أو التحسير: كقول القائل: «مت بغيظك، ومت بدانك، ونحو قوله تعالى: (قل موتوا بغيظكم»، وكما قال جرير:

موتوا من الغيظ غما في جزيرتكم
لن تقطعوا بطن واد دونه مضر

٣ - التعجب: نحو قوله جل ثناؤه: " أسمع بهم وأبصر ".

وقول الشاعر:

أحسس بها خلة لو أنها صدقت موعودها، ولو أن النصح مقبول

٤ - الندب: بأن تكون صيغة الفعل أمرًا ومعناه الندب، بمعنى أن المخاطب في حل من فعله أو عدم فعله، نحو قوله تعالى: (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض؟) وقول شاعر: «فقلت لراعيها انتشر وتبقل».

٥ - التسليم: حيث يكون اللفظ أمرًا والمعنى تسليم وتفويض بأن يصنع ما يشاء، نحو قوله تعالى: «فأقض ما أنت قاض» أي اصنع ما أنت صانع، وكقوله تعالى: (ثم اقضوا إليّ)؛ أي اعملوا ما أنتم عاملون.

٦ - الوجوب: وذلك بأن يكون اللفظ أمرًا والمعنى الوجوب، نحو قوله تعالى: "أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة".

٧ - الخبر: وقد يكون اللفظ أمرًا والمعنى خبر، نحو قوله تعالى: (فليضحكوا قليلا وليبكيوا كثيرًا)، فالمعنى أنهم سيضحكون قليلا ويبكون كثيرًا.

ثانيًا - النهي:

ومن أنواع الإنشاء الطلبي النهي، وهو: (طلب الكف عن الفعل أو الامتناع عنه على وجه الاستعلاء والإلزام)

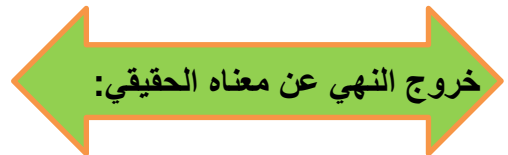
وللنهي صيغة واحدة وهي المضارع المقرون بـ «لا» الناهية الجازمة نحو قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا، وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون. فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم)، وقوله تعالى: (ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب). وقوله تعالى أيضاً: «ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه»

وحتى تستأنسوا: حتى تستأذنوا، وقيل: حتى تجدوا أناسًا. ولا تلمزوا أنفسكم: اللمز الطعن في الغير خفية، بالإشارة، أو بالعين أو اللسان مثلاً. وقد يطلق على كل إصاق عيب بالغير ولو بالباطل، ولا تنابزوا بالألقاب: لا يلقب بعضكم بعضًا بألقاب قبيحة مكروهة.

ومن أمثلة أسلوب النهي في الشعر:

لا تخلني أرضى الهوان لنفسي	الرضا بالهوان عجز صريح
لا تقولوا حطنا الدهر فما	هو إلا من خيال الشعراء
لا تحذو عصابة مفتونة	يجدون كل قديم شيء منكرا
من كل ماض في القديم وهدمه	وإذا تقدم للبناية قصرا

* * *



عرفنا أن النهي الحقيقي في أصل الوضع هو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام. ولكن الذي يتأمل صيغة النهي في أساليب شتى يجد أنها قد تخرج عن معناها الحقيقي للدلالة على معان أخرى تستفاد من السياق وقرائن الأحوال، كما كان الشأن بالنسبة إلى الأمر. ومن المعاني الأخرى التي تحملها صيغة النهي وتستفاد من السياق

وقرائن الأحوال:

١ - الدعاء: وذلك عندما يكون صادراً من الأدنى إلى الأعلى منزلة وشأناً، نحو قوله تعالى: "ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به".

والإصر: أصله الحمل الثقيل الذي يأصر صاحبه أي يلزمه مكانه، والمراد التكليف الشاققة

ومن أمثله شعراً قول المتنبي في مدح علي بن منصور الحاجب:

أمهجن الكرماء والمزري بهم وتروك كل كريم قوم عاتبا
خذ من ثناي عليك ما أسطيعه لا تلزمني في الثناء الواجبا

والمهجن: المقبح. والقصيدة التي منها هذان البيتان تدعى «القصيدة الدينارية، لأن الممدوح، كما يقال، لم يعط الشاعر عليها إلا ديناراً واحداً

وقول أبي فراس من قصيدتين مخاطباً سيف الدولة:

فلا تحمل على قلب جريح به لحوادث الأيام ندب
فلا تعدلن - فداك ابن عم ك، لا بل غلامك عما يجب

وقوله أيضاً:

فإن يمكنك يا مولاي وصلي فلا تبخل بشيء من صلاحي
ولا تعجل إلى تسريح روعي فموتي فيك أيسر من سراحي

وقول النابغة في النعمان بن المنذر:

فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطلي به القار أجرب

وقول شاعر معاصر يبتهل إلى الله:

لا تكني إلى الزمان فإني بفجاج الزمان غير خبير

٢ - الالتماس: وذلك عندما يكون النهي صادراً من شخص إلى آخر يساويه قدراً ومنزلة، نحو قوله تعالى على لسان هارون يخاطب أخاه موسى: (يا ابن ام لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي" .

ومنه شعراً قول أبي فراس، والخطاب لمن يساويه قدراً:

فلا تصفن الحرب عندي فإنه طعامي مذ بعت الصبا وشرابي

وقول المتنبي في سيف الدولة، والخطاب لصديقين متخيلين:

فلا تبلغاه ما أقول فإنه شجاع متى يذكر له الطعن يشفق

وقول شاعر معاصر من قصيدتين:

لا تحسبوا البعد ينسيني مودتكم هيهات هيهات أن تنسى على الزمن

لا تقولي: وهتفت باسمك في الليـل فما طاف بي النداء الحبيب

٣- التمني: عندما يكون النهي موجهاً إلى ما لا يعقل نحو قول شاعر معاصر:

أيه يا طير لا تضن بلحن ينقذ النفس من هموم كثيرة

وقوله:

يا قلب لا تنثر أساك ولا تطف بالذكريات وجوهن المحرق

لا تنهض الأوجاع من أوكارها سوداء تنهش كالمغيظ المحنق

وقوله أيضاً:

يا ليالي ... وانجلي لا تعوديـه بما تحسنينه من عزاء

يا أماسي... وانطوى لا تعيشي بين دنياه عذبة الإيحاء

يا أغاني ... واصمتي لا تسريـه بما تحملينه من غنائي

يا أماني... واهدني لا تماثـه ولا تشغليه بالأشقياء

يا مآسى... واسكتي لا تضجي ودعيه يعيش كالأحياء

وقول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

أعيني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى؟

٤ - النصح والإرشاد: وذلك عندما يكون النهي يحمل بين ثناياه معنى من معاني النصح والإرشاد، نحو قول المتنبي:

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
وقول أبي العلاء المعري:

ولا تجلس إلى أهل الدنيا فإن خلائق السفهاء تعدي
وقول الطغراني:

لا تطمحن إلى المراتب قبل أن تتكامل الأدوات والأسباب
وقول شوقي:

لا تسمعوا للمرجفين وجهلهم لمصيبة الإسلام من جهالة
ومعني المرجفون: من يخوضون في الأخبار السيئة ليقعوا في الناس الاضطراب.
وقوله:

لا تهجعن إلى الزمان فقد ينبه من هجع
لا تخل من أمل إذا ذهب الزمان فكم رجع
والهجوع: النوم.

٥- التوبيخ: عندما يكون المنهي عنه أمرًا لا يشرف الإنسان ولا يليق أن يصدر عنه،
نحو قوله تعالى: (لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرًا منهم)

ونحو قول المتنبي:

لا تحسب المجد تمرًا أنت أكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وقول أبي الأسود الدؤلي:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك، إذا فعلت، عظيم

٦ - التحقير: عندما يكون الغرض من النهي الإضرار بالمخاطب والتقليل من شأنه وقدراته، وفيما يلي أمثلة لذلك:

لا تطلب المجد واقنع فمطلب المجد صعب

لا تحسبوا من قتلتم كان ذا رمق فليس تأكل إلا الميته الضبع

لا تطلب المجد إن المجد سلمه صعب، وعش مستريحًا ناعم البال

ومنه قول الحطيئة في الزبرقان بن بدر:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

ومنه قول أبي هلال العسكري:

انظر إليهم ولا تعجبك كثرتهم فإنما الناس قلوا كلما زادوا

ولا يهولنك من دهانهم عدد فليس للناس في التحصيل أعداد

ومنه قول ابن الرومي:

فلا تخش من أسهمي قاصدًا ولا تأمنن من العائر

ولكن، وقاك معراتها تضاول قدرك في خاطر

والسهم العائر: الذي لا يدري من رمى به، والمعرات: جمع معرة وهي المساءة والاثم والعيب.

٧ - التئيس: ويكون في حال المخاطب الذي يهم بفعل أمر لا يقوى عليه أو لا نفع له فيه من وجهة نظر المتكلم؛ كأن تقول لشخص يحاول نظم الشعر وليس لديه ملكة الشعر وأدواته: لا تحاول نظم الشعر، ونحو قوله تعالى: " لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم".

ومنه شعرا قول المتنبي في مدح سيف الدولة:

لا تطلبن كريما بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يدا ختموا

وقول آخر:

لا تعرضن لجعفر متشبها بندى يديه فلست من أنداده

٨ - التهديد: وذلك عندما يقصد المتكلم أن يخوف من هو دونه قدراً ومنزلة عاقبة القيام بفعل لا يرضى عنه المتكلم؛ كأن تقول لمن هو دونك: (لا تقلع عن عنادك) أو «لا تكف عن أذى غيرك».

* * *

ثالثاً - الاستفهام:

من أنواع الإنشاء الطلبي الاستفهام: وهو «طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل بأداة خاصة وأدوات الاستفهام كثيرة منها: الهمزة، وهل.

ولنبداً بإيراد أمثلة لهاتين الأداتين للتوصل عن طريق مناقشتها إلى الفرق بينها معنى واستعمالاً.

أمثلة للهمزة

١ - أمحمد فاز بالجائزة أم علي؟

٢ - أكاتب أنت أم شاعر؟

٣ - أمبكرًا حضرت إلى المحاضرة أم متأخرًا؟

٤ - أقلمًا أهديت إلى صديقك أم كتابًا؟

٥ - أسبوعًا قضيت في الجبل أم أكثر من أسبوع؟

فهذه الجمل جميعها تفيد الاستفهام الذي هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل، وأداة الاستفهام في كل منها هي الهمزة.

وبالتأمل في هذه الأمثلة نجد المتكلم أو السائل في كل مثال منها يعرف النسبة التي تضمنها الكلام، ولكنه يتردد في شيئين ويطلب تعيين أحدهما.

فهو في المثال الأول يعرف أن الفوز بالجائزة قد وقع فعلا وأنه منسوب إلى واحد من اثنين: محمد وعلي، ولذلك فهو لا يطلب معرفة النسبة لأنها معروفة، وإنما يطلب معرفة مفرد، وينتظر من المسؤول أن يعين له ذلك، المفرد ويدله عليه، ومن أجل ذلك يكون جوابه بالتعيين، فيقال له: محمد مثلا.

وفي المثال الثاني يعلم السائل أن واحداً من شيئين: الكتابة أو الشعر قد نسب إلى المخاطب فعلا، ولكنه متردد بينها، فلا يدري أهو الكتابة أم الشعر، فهو إذن لا يطلب معرفة النسبة لأنها معروفة له، ولكنه يسأل عن مفرد ويطلب تعيينه، ولهذا يُجاب بالتعيين، فيقال له في الجواب: شاعر مثلا .

وفي المثال الثالث يعلم المستفهم أن حضور المخاطب إلى المحاضرة قد وقع فعلا، ولكنه متردد في الحالة التي كان عليها المخاطب عند حضوره إلى المحاضرة، فلا يدري أهو حالة تكبير أم تأخير. فهو إذن لا يطلب معرفة النسبة لأنها معروفة له، وإنما يستفهم عن

مفرد ويطلب تعيينه، ولهذا يجب بتعيين إحدى الحالين، فيقال له في الجواب: مبكراً مثلاً، وهكذا يقال في بقية الأمثلة.

من ذلك نرى أن همزة الاستفهام يطلب بها معرفة مفرد، وتسمى معرفة المفرد تصوراً. إذن فالهمزة من استعمالاتها أنه يطلب بها التصور، وهو إدراك المفرد.

ويلاحظ من الأمثلة أيضاً أن الهمزة التي للتصور تكون متلوة بالمسؤول عنه دائماً ويذكر له في الغالب معادل بعد «أم».

أمثلة أخرى للهمزة:

١ - أتصهر النار الأحجار؟

٢ - أيزرع القطن في الجزائر؟

٣ - أينزل الثلج شتاء في الصحراء؟

وإذا نظرنا في أمثلة هذه الطائفة التي فيها أداة الاستفهام الهمزة أيضاً فإننا نجد الحال على خلاف ما كانت عليه في الأمثلة السابقة.

فالسائل: «أتصهر النار الأحجار؟» متردد بين ثبوت صهر النار للأحجار ونفيه، فهو يجهل هذه النسبة، ولذلك يسأل عنها ويطلب معرفتها. وفي سؤاله «أيزرع القطن في الجزائر؟» يتردد السائل بين ثبوت زراعة القطن في الجزائر ونفيها عن الجزائر، ولذلك يطلب معرفة هذه النسبة. وفي سؤاله كذلك: «أينزل المطر شتاء في الصحراء؟» يتردد السائل بين ثبوت نزول المطر شتاء في الصحراء ونفيه عنها، ومن أجل ذلك يطلب معرفة هذه النسبة أيضاً.

وفي جميع هذه الأمثلة وأشباهها يكون الجواب بـ «نعم» إن أريد الإثبات، وبـ «لا» إن أريد النفي. وإذا تأملنا هذه الأمثلة لم نجد للمسؤول عنه وهو «النسبة» معادلاً

ومن كل ما تقدم يتضح أن لهزمة الاستفهام استعمالين، أحدهما: ان يكون المعلوم هو النسبة والمجهول هو المفرد، فيطلب بها معرفة المفرد، والثاني: أن يكون المجهول هو النسبة فيطلب بها معرفة النسبة. وتسمى معرفة المفرد «تصورًا»، ومعرفة النسبة «تصديقًا».

أمثلة «هل»:

١ - هل تنام الطيور في الليل؟

٢ - هل تحب الموسيقى؟

٣ - هل يتألم الحيوان؟

وإذا تأملنا هذه الأمثلة حيث أداة الاستفهام فيها هي «هل» وجدنا أن السائل في كل منها لا يتردد في معرفة مفرد من المفردات، ولكنه متردد في معرفة النسبة؛ فلا يدري أمثبة أم منفية، فهو يسأل عنها، ولذلك يجاب عليه بـ «نعم» إن أريد الإثبات، وبـ «لا» إن أريد النفي -

وكذلك يكون الشأن في جميع الأسئلة التي تكون أداة الاستفهام فيها «هل»، أعني أن المطلوب بها هو معرفة النسبة ليس غير. وعلى ذلك لا تستعمل «هل» إلا لطلب التصديق فقط، ويمتنع معها ذكر المعادل.

وتلخيصًا لكل ما ذكرناه عن الاستفهام حتى الآن نقول:

١ - من أنواع الإنشاء الطلبي الاستفهام: وهو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل بأداة خاصة.

٢ - وأدوات الاستفهام كثيرة منها : الهمزة، وهل

٣ - الهمزة - يطلب بها أحد أمرين:

أ - التصور: وهو إدراك المفرد، أي تعيينه، وفي هذه الحال تأتي الهمزة متلوة بالمسؤول عنه، ويذكر له في الغالب معادل بعد «أم».

ب - التصديق: وهو إدراك النسبة، أي تعيينها، وفي هذه الحال يمتنع ذكر المعادل.

٤ - هل - ويطلب بها التصديق ليس غير، أي إدراك النسبة، ويمتنع معها ذكر المعادل. وإتماماً للكلام عن «الهمزة وهل» تجدر الإشارة إلى بعض نقاط تتصل بها أو بأحدهما. النقطة الأولى أن «أم» إن جاءت بعد همزة التصور، نحو:

أفاحاً اشتريت أم برتقالاً؟ فإنها تكون متصلة، بمعنى أن ما بعدها يكون داخلاً في حيز الاستفهام السابق عليها. وقد يستغنى عن ذكر المعادل.

نحو قوله تعالى: (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟) ويقدر المعادل في الآية: أم غيرك؟

أما إذا جاءت أم، بعد همزة التصديق، نحو قول جرير:

أتصحو؟ أم فؤادك غير صاح عشيّة هم قومك الرواح

أو بعد هل، التي للتصديق فقط نحو قول الشاعر:

ألا ليت شعري هل تغيرت الرحي

رحى الحرب؟ أم أضحت بفلج كما هيا

والفلج لغة: الظفر والفور، والفلج نهر صغير، والفلج اسم بلد، وواد بطريق البصرة إلى مكة.

فإن أم، في هاتين الحالين: حالة همزة التصديق، وهل، تقدر منقطعة، وتكون بمعنى «بل» التي تكون للانتقال من كلام إلى آخر لا يمتد تأثير الاستفهام السابق إليه. وبعبارة أخرى يكون الكلام الذي يلي «أم» المنقطعة خبرياً لا إنشائياً.

النقطة الثانية أن «هل» قسمان:

١ - بسيطة: إن استفهم بها عن وجود شيء أو عدمه، نحو: هل يصدأ الذهب؟ فالمطلوب هنا هو معرفة ثبوت الصدا للذهب أو نفيه عنه، ولذلك يجاب في الإثبات بنعم، وفي النفي بلا. ومن أمثلتها أيضاً: هل الحركة موجودة؟

٢ - مركبة: إن استفهم بها عن وجود شيء لشيء أو عدمه، نحو: هل نهر النيل يصب في البحر الأبيض؟ فالعلم بوجود نهر النيل أمر لا شك فيه، ولكن المجهول عنه والمطلوب معرفته هو ثبوت صبه في البحر الأبيض أو نفيه عنه. ولهذا يُجاب عنه أيضاً في الإثبات بنعم وفي النفي بلا. ومن أمثلتها أيضاً: هل الحركة دائمة؟ وهذا التقسيم ليس مقصوراً على «هل» وإنما تشترك معها فيه الهمزة التي للتصديق، فقد تكون هي الأخرى بسيطة إن استفهم بها عن وجود الشيء أو عدمه، وقد تكون مركبة إن استفهم بها عن وجود شيء لشيء.

والنقطة الثالثة أن المسؤول عنه بالهمزة التي للتصور يلي الهمزة مباشرة، سواء أكان هو:

١ - المسند إليه نحو: أنت الذي جاء لزيارتي أمس أم غيرك؟

٢ - أو المسند نحو: أمسافر أنت في الصيف أم مقيم؟

٣ - أو مفعولاً به نحو: اكتباً قرات في الأدب أم أكثر من كتاب؟

٤ - أو حالاً نحو: أماشيا تغدو إلى عملك أم راكباً؟

٥ - أو زماناً نحو: أساعة أمضيت في زيارة صديقك ام ساعتين؟

٦ - أو غير ذلك من المتعلقات نحو: ألى الشعر تميل أم إلى الأدب القصصي؟

* * *

بقية أدوات الاستفهام:

عرفنا من أدوات الاستفهام حتى الآن: الهمزة وهل، ولكن للاستفهام أدوات أخرى غير هاتين الأداتين، وهي: من وما ومتى وأيان وكيف وأين وأنى وكم وأي.

وهذه الأدوات يطلب بها التصور فقط، ولذلك يكون الجواب معها بتعيين المسؤول عنه.

وطبيعي أن المطلوب تعيينه أو تصوره بكل منها يخالف المطلوب تعيينه وتصوره بأداة أخرى، ولذلك يقتضي الأمر التعرف على حقيقة المسؤول عنه والمطلوب تعيينه وتصوره بكل أداة من هذه الأدوات. وفيما يلي بيان ذلك:

١ - من: ويطلب بها تعيين العقلاء.

وتعيين العاقل يحصل بالعلم، أي بذكر اسم المسؤول عنه، كقولنا: في جواب: من هذا؟ هذا محمد أو علي مثلا، كما يحصل بالصفة، أي بذكر صفة من صفات المسؤول عنه، كقولنا في جواب السؤال السابق: من هذا؟ هذا معلم أو طبيب أو صديق مثلا.

١ - ما، ويطلب بها شرح الاسم أو ماهية المسمى.

فشرح الاسم يراد به بيان مدلوله لغة، أي بيان المعنى الذي وضع له في اللغة، نحو: ما الكبرياء؟ فيكون الجواب: إنها العظمة والملك والتجبر. وما التواضع؟ فيكون الجواب: إنه التذلل والخشوع.

أما ماهية المسمى فهي حقيقته التي هو بها هو، ويراد بها الحقيقة الوجودية التي تتحقق بها أفراد الشيء بحيث لا يزداد في الخارج عليها إلا العوارض كان يقال: ما الإنسان؟ فيكون الجواب إنه الحيوان الناطق. فأفراد الإنسان لا تزيد عن هذه الحقيقة إلا بالعوارض أي الصفات التي تميز فرداً من الإنسان على الآخر. وكأن يقال: ما الحركة؟ أي ما حقيقة مسمى هذا اللفظ فيجاب بإيراد ذاتياته.

قال السكاكي: يُسأل بما عن الجنس»، تقول: ما عندك؟ بمعنى أي أجناس الأشياء عندك؟ وجوابه كتاب ونحوه. كذلك يسأل بما عن الوصف، تقول: ما زيد؟ أي ما صفة زيد؟

وجوابه: الكريم؟ ونحوه. ويدخل عنده في السؤال بما عن الجنس، السؤال عن الماهية أي الحقيقية، نحو: ما الكلمة؟ بمعنى أي أجناس الألفاظ هي، وجوابه: إنها لفظ مفرد موضوع.

٣ - متى: ويطلب بها تعيين الزمان ماضيًا كان أو مستقبلاً. فتقول: متى جئت؟ والجواب صباحًا أو مساءً مثلاً. وتقول: متى تأتي؟ ويكون الجواب: آتي بعد شهر مثلاً.

٤ - أيان: ويطلب بها تعيين الزمان المستقبل خاصة، وأكثر ما تكون في مواضع التفخيم، أي في المواضع التي يقصد فيها تعظيم المسؤول عنه والتهويل بشأئه، نحو قوله تعالى: «يسأل أيان يوم القيامة؟» و «يسألونك عن الساعة أيان مرساها؟»، «ويسألون أيان يوم الدين».

٥ - كيف: ويطلب بها تعيين الحال، فإذا قيل: كيف أحمد؟ فجوابه: هو صحيح، أو سقيم، أو شج، أو جذلان وما أشبه ذلك. وشج أو جذلان: حزين أو فرحان.

٦ - أين: ويطلب بها تعيين المكان، فإذا قيل: أين الطبيب؟ فجوابه: هو في المستشفى أو في عيادته مثلاً.

٧ - أني: وتأتي لمعان عدة، وتفصيل ذلك أنها تستعمل تارة بمعنى كيف» نحو: أن يتوقع المرء النجاح في عمله وهو لا يعمل له؟ وتارة تستعمل بمعنى «من أين، نحو: أني لك هذا؟ وتارة تستعمل بمعنى «متى نحو: أن جئت؟ أو أن تجيء؟»

٨ - ويطلب بها تعيين العدد، نحو قوله تعالى: «سل بني إسرائيل كم أتيناكم من آية بينة؟ وقوله تعالى: "كم لبثتم في الأرض عدد سنين"».

٩ - أي: ويطلب بها تعيين أحد المتشاركين في أمر يعمهما، نحو قوله تعالى: (أي الفريقين خير مقامًا؟ أي أنحن أم أصحاب محمد؟

وعلى هذا يسأل «بأي، عن العاقل وغير العاقل، وعن الزمان، والمكان، والحال، والعدد. على حسب ما تضاف إليه. فإن أضيفت إلى زمان أو مكان أو عدد مثلاً أعطيت حكم متى أو أين أو كم على التوالي، وهكذا.

المعاني التي تستفاد من الاستفهام بالقرائن:

عرفنا أن الاستفهام في الأصل هو طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل بأداة خاصة. ولكن أدوات الاستفهام قد تخرج عن معانيها الأصلية إلى معانٍ أخرى على سبيل المجاز تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال.

ومن هذه المعاني الأخرى الزائدة التي تحتلها ألفاظ الاستفهام وتستفاد من سياق الكلام:

١ - النفي، وذلك عندما تجيء لفظة الاستفهام للنفي لا لطلب العلم بشيء كان مجهولاً.

ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: "فمن يهدي من أضل الله؟"، وقوله: «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟» وقوله: «أفأنت تنقذ من في النار؟»، وقوله: (ومن ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه؟ تظاهر هذه الآيات الكريمة الاستفهام، والمعنى: لا هادي لمن أضل الله. وليس جزاء الإحسان إلا الإحسان. ولست تنقذ من في النار. ولا أحد يشفع عنده إلا بإذنه.

ومن الشعر الذي خرج فيه الاستفهام إلى النفي قول الفرزدق:

أين الذين بهم تسامي دارمًا؟ أم من إلى سلفي طهية تجعل؟

وقول أبي فراس في رثاء أمه:

إلى من أشتكى؟ ولمن أناجي إذا ضاقت بما فيها الصدور؟

بأي دعاء داعية أوقي؟ بأي ضياء وجه استنير؟

بمن يستدفع القدر الموفي؟ بمن يستفتح الأمر العسير؟

وقول المتنبي من قصائد مختلفة:

ومن لم يعشق الدنيا قديمًا؟ ولكن لا سبيل إلى الوصال

يفنى الكلام ولا يحيط بفضلكم أحيط ما يفنى بما لا ينفد؟

وهل تفنى الرسائل في عدو إذا ما لم يكن ظبياً رفاقاً؟

كيف الرجاء من الخطوب تخلصاً من بعد ما أنشين في مخالبا؟

والظباء في البيت الثالث جمع ظبة بضم الظاء وباء مخففة وهي حد السيف،
والمعنى لا يشتفي من العدو إلا بالقتل.

وقول البحتري:

هل الدهر إلا غمرة وانجلانها ***** وشيكا، وإلا ضيقة وانفراجها؟

وقول آخر:

فما ترجي النفوس من زمن ***** أحمد حاله غير محمود؟

فالاستفهام في جميع هذه الأبيات قد خرج عن معناه الأصلي إلى النفي الذي يستفاد من
سياق الكلام.

٢- التعجب: كقوله تعالى: «ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟ وقوله على
لسان سليمان عليه السلام (مالي لا أري الهدهد؟)»، فالغرض من هذا السؤال هو التعجب،
لأن الهدهد كان لا يغيب عن سليمان إلا بإذنه، فلما لم يبصره تعجب من حال نفسه وعدم
رؤيته. والمتعجب منه في الحقيقة هو غيبة الهدهد من غير إذن ووجه خروج الاستفهام
إلى التعجب أن السؤال عن السبب في عدم الرؤية يستلزم الجهل بذلك السبب، والجهل
بسبب عدم الرؤية يستلزم التعجب.

ومن أمثله في شعر المتنبي قوله حينما صرع بدر بن عمار أسداً:

أمعفر الليث الهزبر بسوطه لمن ادخرت الصارم المسلولا؟

وعفره: مرغه في التراب والليث الهزير: الأسد الشديد، والصارم السيف القاطع يقول: إذا
كنت تصرع الأسد القوي بالسوط فلمن أعددت سيفك القاطع؟
وقوله وقد أصابته الحمى:

أبنت الدهر عندي كل بنت؟
فكيف وصلت أنت من الزحام؟
وقوله في سيف الدولة أصابته علة:
وكيف تعلق الدنيا بشيء
وأنت لعة الدنيا طيب؟
وكيف تنوبك الشكوى بداء
وأنت المستغاث لما ينوب؟
وقوله أيضا:

خليلي إني لا أرى غير شاعر
فلم منهم الدعوى ومني القصائد؟
فلا تعجبا أن السيوف كثيرة
ولكن سيف الدولة اليوم واحد
وقول إحدى نساء العرب تشكو ابنها:
أنشأ يمزق أثيابي يؤدبني
أبعد شيبتي يبغني عندي الأدبا!
وقول شوقي:

ما أنت يا دنيا؟ أرويا نائم؟ أم ليل عرس؟ أم بساط سلاف؟

٣ - التمني: وذلك عندما يكون السؤال موجها إلى من لا يعقل.

ومن أمثله:

هل الحدث الحمراء تعرف لونها؟
وتعلم أي الساقيين الغمام
والحدث: قلعة بناها سيف الدولة في بلاد الروم

هل بالطلول لسائل رد؟
أم هل لها بتكلم عهد؟
أيدري الربع أي دم أراقا؟
أما تغلط الأيام في بأن أرى
بغيصاً تنائي أو حبيباً تقرب؟
فيا ليلة قد رجعنا بهما
سعيدين، من لي بأن تقبلي؟
وقول أبي العتاهية في مدح الأمين:

تذكر أمين الله حقي وحرمتي
وما كنت توليني لعك تذكر
فمن لي بالعين التي كنت مرة
إلى بها في سالف الدهر تنظر؟
وقول شاعر معاصر من قصائد مختلفة:

يا طيور المساء هل من سبيل
تصل النفس بالليالي الشهيدة؟
هو هذا أنا من لي بصوت
يمنع الناس أن يطيلوا الملاما؟
ألا ليالي بيضاً كالتى سلفت
أنسى بها كل ما عانيت من محن؟
وقوله مخاطباً بلاده:

أما فيك من قلبه أمة
ومن عزمه الجيش أو أصلب؟

٤ - التقرير: حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه إثباتاً ونفياً لغرض من الأغراض، على أن يكون المقرر به تالياً لهمزة الاستفهام، فتقول: أفعلت؟ إذا أردت أن تقرره بأن الفعل كان منه، وتقول: أنت فعلت؟ إذا أردت أن تقرره بأنه الفاعل، وتقول: أشعراً نظمت؟ إذا أردت أن تقرره بأن منظومه شعر، وهكذا.

ومن الاستفهام التقريري قوله تعالى: «ألم نشرح لك صدرك؟؟ وقوله: «ألم نربك فينا وليدا؟»، وقوله تعالى على لسان قوم إبراهيم: "أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟» وقوله: «ألم يجدك يتيماً فأوى؟ ووجدك ضالاً فهدى؟ ووجدك عائلاً فأغنى".

ومن أمثلته شعراً:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح؟
ألست المرء تجبي كل حمد إذا ما لم يكن للحمد جاب؟ (١)
ألست أعمهم جوداً وأزكا هم عوداً وأمضاهم حساماً؟ (٢)

والمراد بتجبي : تجمع ، وأزكاهم عوداً: أقواهم جسماً.

٥- التعظيم: وذلك بالخروج بالاستفهام عن معناه الأصلي واستخدامه في الدلالة على ما يتحلى به المسؤول عنه من صفات حميدة كالشجاعة والكرم والسيادة والملك وما أشبه ذلك. ومن أمثلته:

من فيكم الملك المطاع كأنه تحت السوابغ تُتبع في حمير؟
أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر؟
من للمحافل والجحافل والسرى؟ فقدت بفقدك نيراً لا يطلع
ومن اتخذت على الضيوف خليفة؟ ضاعوا، ومثلك لا يكاد يضيع
إذا القوم قالوا من فتى لعظيمة؟ فما كلهم يدعى، ولكنه الفتى
إذا القوم قالوا: من فتى؟ خلت أننى دعيت فلم أكسل ولم أتبد

٦ - التحقير: عندما يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي للدلالة على ضالة المسؤول عنه وصغر شأنه مع معرفة المتكلم أو السائل به. نحو من هذا؟ والعلاقة أن المحتقر من شأنه

أن يجهل لعدم الاهتمام به فيسأل عنه والاحتقار فيه إظهار حقارة المخاطب وإظهار اعتقاد صغره، ولذلك يصح في غير العاقل نحو: ما هذا؟»، أي هو شيء حقير قليل.

ومما ورد منه في القرآن قوله تعالى على لسان الكفار: "أهذا الذي بعث الله رسولا" ومن أمثله شعراً:

فدع الوعيد فما الوعيد بضائري أظنين اجنحة الذباب يضير

أتظن أنك للمعالي كاسب وخبي أمرك شررة وشنار؟

الشررة بكسر الشين: الشر والحدة والحرص، والشنار يفتح الشين: أقبح العيب.

من أية الطرق يأتي مثلك الكرم؟ أين المحاجم يا كافور والجلم؟
أيشتمنا عبد الأرقام ضلــــــــــــة؟ فماذا الذي تجدي عليك الأرقام

ومعني المحاجم: جمع محجمة بكسر الميم وهي الوعاء الذي يجمع فيه دم الحجامة. والجلم: أحد شقي المشرط. قيل إن كافوراً كان عبداً لحجام بمصر ثم اشتراه الإخشيد.

والأرقام في البيت الذي يليه: حي من تغلب، وعبد الأرقام: كناية عن الأخطل، والضلة بكسر الصاد ضد الهدى.

٧ - الاستبطاء: وهو عد الشيء بطيئاً في زمن انتظاره وقد يكون محبوباً منتظراً، ولهذا يخرج الاستفهام فيه عن معناه الأصلي للدلالة على بعد زمن الإجابة عن بعد زمن السؤال، وهذا البعد يستلزم الاستبطاء، نحو قولك المخاطب دعوته فأبطأ في الاستجابة لك: وكم دعوتك؟، فليس المراد هنا الاستفهام عن عدد مرات الدعوة أو النداء، وإنما المراد أن تكرر الدعوة قد باعد بين زمن الإجابة وزمن السؤال، وفي ذلك إبطاء، ولهذا جاء السؤال دالاً على استبطاء تحقق المسؤول عنه، وهو الاستجابة للدعوة المتكررة.

ومن أمثلة ذلك قوله: «كم انتظرتك؟»، و«متى يعود السلام إلى ربوع الوطن؟».

ونحو قوله تعالى: (متى نصر الله)

ومنه شعراً:

إلام وفيهم تنقلنا ركاب
ونأمل أن يكون لنا أوان؟
حتى متى أنت في لهو وفي لعب
والموت نحوك يهوي فاتحا فاه؟
حتام نحن نساري النجم في الظلم؟
وما سراه على خف ولا قدم
طال بي الشوق، ولكن ما التقينا
فمتى ألقاك في الدنيا؟ وأينا؟
متى يشتفي من لاعج الشوق في الحشى
محب لها في قربه متباعدا؟

٨ - الاستبعاد : وهو عد الشيء بعيداً حشا أو معنى، وقد يكون المنزلة منكراً مكروهاً غير منتظر أصلاً، وربما يصلح المحل الواحد له وللاستبطاء. وعلى هذا قد يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي للدلالة على استبعاد السائل للمسؤول عنه، سواء أكان البعد حسياً مكانياً، نحو قول شوقي وهو منفي في الأندلس: «أين شرق الأرض من أندلس؟» أو بعداً معنوياً كمن يقول لمن هو أعلى منه منزلة: «أين أنا منك؟».

ومن أمثله قوله تعالى: "أني لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه" أي كيف يذكرون ويتعظون والحال أنهم جاءهم رسول يعلمون أمانته بالآيات البيّنات من الكتاب المعجز وغيره فتولوا عنه وأعرضوا؟ فكل هذه قرائن لاستبعاد تذكّركم.

أمثله شعراً قول جرير في رثاء ابنه سواده:

قالوا: نصيبك من أجر فقلت لهم: كيف العزاء إذا فارقت أشبالي؟

ونصيبك بالنصب لا غير، لأنه مفعول لفعل محذوف تقديره احفظ أو أحرز نصيبك.

وقول أبي تمام:

من لي بإنسان إذا أغضبتَه
وجهلّت كان الحلم رد جوابه؟

وقول أبي الطيب:

ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا؟

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم

وقول آخر:

يغدو عليه مشمراً في نصره؟

من لي برد الدمع قسراً، والهوى

وقول شاعر معاصر:

أكنت تلقى به ظلاً لإنسان؟

هذا الفؤاد فنقب في جوانحه

٩ - الإنكار وقد يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي للدلالة على أن المستفهم عنه أمر منكر عرفاً أو شرعاً، نحو قولك لمن يقف بسيارته في طريق عام من غير سبب: «أتعوق غيرك عن السير في الطريق؟»، ونحو قولك لمسلم يأكل أو يدخن نهاراً في رمضان: «أتأكل أو تدخن في شهر الصيام؟» فأنت في كلا السؤالين تنكر على المخاطب صدور مثل هذا العمل الشائن منه وتقرعه عليه.

والاستفهام الإنكاري يكون على أوجه، فهو:

أ- إما إنكار للتوبيخ على أمر وقع في الماضي، بمعنى ما كان ينبغي أن يكون ذلك الأمر الذي كان، نحو قولك لمن صدر منه عصيان: «أعصيت ربك؟» .

ب - وإما إنكار للتوبيخ على أمر واقع في الحال أو خيف وقوعه في المستقبل، والمعنى على هذا: لا ينبغي أن يكون هذا الأمر، نحو: «أتعصي ربك؟» تقول هذا لمن هو واقع في المنكر أو لمن هم أن يقع فيه، على معنى: لا ينبغي أن يحدث منك حالاً أو يصدر عنك استقبالاً. ويسمى الإنكار في الحالين السابقتين الإنكار التوبيخي.

ج - وإما إنكار للتكذيب في الماضي، بمعنى «لم يكن»، أي أن المخاطب إن ادعى وفرع شيء فيا مضى، از نزل منزلة المدى ان بالاستفهام الإنكاري تكديبا له في دعواه، نحو

قوله تعالى لمن اعتقدوا أن الملائكة بنات الله: «أفصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً» أي: أخصم ربكم بالذكور وخص نفسه بالبنات؟ أي أنه لم يفعل هذا لتعالیه عن الولد مطلقاً.

د. وإما إنكار للتكذيب في الحال أو في المستقبل، بمعنى الا يكون نحو قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام عندما دعا قومه إلى التوحيد وكذبوه: (قال يا قوم: أرأيتم إن كنت على بينة من ربي، وأناني رحمة من عنده فعميت عليكم، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون؟؟) أي أنلزمكم تلك الحجة البينة على أنني رسول الله؟ أي أنكرهكم على قبولها، والحال أنكم لها لا يكون هذا الإلزام. فالإنكار في هذين الحالين إنكار لأمر كاذب، ولذلك يسمى في الحالين الإنكار التكذبي.

ويجب في الاستفهام الإنكاري أن يقع المنكر بعد همزة الاستفهام.

وقد يكون المنكر هو والفعل، نحو قوله تعالى: (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر اتخذ أصناماً آلهة؟) فالمنكر هو نفس الفعل، أي اتخذ الأصنام آلهة. ونحو قوله تعالى على لسان إبراهيم عندما أسرع إليه قومه بعد أن كسر أصنامهم: (قال: أتعبدون ما تحتون والله خلقكم وما تعملون؟)، ونحو قول امرئ القيس:

أيقنتني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأياب أغوال؟

والمشرقي سيف نسب إلى قرى بالشام يقال لها المشارف، والمسنونة الزرق: السهام المسنونة الصافية، والأغوال: جمع الغول، وهو كل ما اغتال الإنسان وأهلكه.
وقول آخر:

أترك إن قلت دراهم خالد زيارته؟ إنني إذن للئيم

وقد يكون المنكر هو «الفاعل، في المعنى، كقوله تعالى: «أهم يقسمون رحمة ربك؟؟» أي ينكر عليهم أن يكونوا هم المتخيرين للنبوّة من يصلح لها المتولين لقسم رحمة الله يتولاها هو بباهر قدرته وبالغ الزمخشري الضرب قوله تعالى:

«أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟»، وقوله تعالى أيضاً: «أفأنت تسمع الصم تهدي العمي" على أن المعنى: أفأنت تقدر على إكراههم على الإيمان؟ أفأنت تقدر على هدايتهم على سبيل القسر والإلجاء؟ أي إنما يقدر على ذلك الله لا أنت.

وقد يكون المنكر المفعول، نحو قوله تعالى: (أغير الله أتخذ ولياً؟)، وقوله تعالى: (أغير الله تدعون؟) وقد يكون المفعول لأجله، نحو قوله تعالى: (أفأفكا^(١) آلهة دون الله تريدون؟؟ أي أتريدون آلهة غير الله كذبا؟ وهكذا.

١٠- التهكم: ويقال له أيضاً السخرية والاستهزاء، وهو إظهار عدم المبالاة بالمستهزأ أو المتهكم به ولو كان عظيماً. وقد يخرج معناه الأصلي للدلالة على المعنى، نحو قوله تعالى حكاية عن الكافرين في شعيب «قالوا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء؟؟ فالقصد هنا هو الاستخفاف بشأن شعيب في صلاته التي يلازمها، لأن شعيباً كان كثير الصلاة، إذا رآه يصلي تضاحكوا، فقصداً بسؤالهم لشعيب الهزاء والسخرية والتهكم لا حقيقة الاستفهام.

ومثله قوله تعالى حكاية عن إبراهيم السلام: «فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون؟ ما لكم لا تنطقون؟»، فالمعنى أن إبراهيم ذهب خفية إلى أصنام قومه فقال لهم هذا القول تهكماً بهم وسخرية واستهزاء ومنه قوله تعالى: (أهذا الذي يذكر آلهتكم؟)

ومنه شعراً قول المتنبي في الدمستق:

أفي كل يوم ذا الدمستق مقدم قفاه على الإقدام للوجه لانم؟^(١)

والدمستق صاحب جيش الروم، والمعنى: أكل يوم يقدم الدمستق عليك يا سيف الدولة ثم يفر، فيلوم قفاه وجهه على إقدامه قانلاً له: لم أقدمت حتى عرضتني للضرب بهزيمتك؟ وذلك أن إقدامه سبب هزيمته والضرب في قفاه.

وقول أبي فراس متهماً ببني زرارة عندما أخذ أحد حلفائهم منهم غصبا:

ما بالكم! يا أقل الله خيركم لا تغضبون لهذا الموثق العاني؟

جار نزعناه قسراً في بيوتكم والخيل تعصب فرساناً بفرسان

١١ - التسوية: وتأتي الهمزة للتسوية المصرح بها نحو قوله تعالى: (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون)، فهم يعلمون مسبقاً أنهم أنذروا ومع ذلك أصروا على كفرهم وعنادهم، ولهذا يجيء الاستفهام هنا للدلالة على أن إنذار الرسول وعدمه بالنسبة لهم سواء . ومن أجل ذلك خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي ليؤدي معنى مجازياً بلاغياً هو التسوية.

ومن أمثلة التسوية أيضاً قوله تعالى: (وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون؟)،
ومنه قول المتنبي:

أكان تراثاً ما تناولت أم كسبياً؟ ***** ولست أبالي بعد إدراكي العلا

١٢ - الوعيد: ويسميه بعض البلاغيين «التهديد»، وذلك نحو قولك - لمن يسيء الأدب: «ألم أؤدب فلاناً؟»، إذا كان المخاطب المسيء للأدب عالماً أنك أدبت فلاناً، فيفهم معنى الوعيد والتهديد والتخويف فلا يحمل كلامك على الاستفهام الحقيقي . ومنه قوله تعالى: (ألم تر كيف فعل ربك بعاد؟)

١٣ - التهويل: وهو التفضيع والتفخيم لشأن المستفهم عنه لغرض من الأغراض، وذلك كقراءة ابن عباس لقوله تعالى: (ولقد أنجينا بني إسرائيل من العذاب المهين، من فرعون، فقد قرأ ابن عباس ومن فرعون؟) بفتح ميم «من، على أنها اسم استفهام خبر مقدم، و «فرعون» بالرفع على أنه مبتدأ. وحقيقة الاستفهام على هذه القراءة غير مرادة، وإنما المراد تفضيع أمر فرعون والتهويل بشأنه لبيان شدة العذاب الذي نجا منه بنو إسرائيل. وللتهويل من شأن فرعون وعذابه، قال تعالى بعد ذلك: (إنه كان عالياً من المسرفين)، أي إنه كان عالياً في ظلمه مسرفاً في عتوه.

١٤ - التنبيه على الضلال: نحو قوله تعالى: «فأين تذهبون؟؟» وليس القصد هنا الاستفهام عن مذهبهم وطريقهم، بل التنبيه على ضلالهم وأنه لا طريق لهم ينجون به. وكثيراً ما

يؤكد هذا الاستعمال بالتصريح بالضلال، فيقال لمن ضل عن طريق القصد: «يا هذا إلى أين تذهب قد ضللت فارجع»، وبهذا يعلم أن التنبيه على الضلال لا يخلو من الإنكار والنفي.

١٥ - التشويق: وفيه لا يطلب السائل العلم بشيء لم يكن معلوماً له من قبل، وإنما يريد أن يوجه المخاطب ويشوقه إلى أمر من الأمور، نحو قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم؟ تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون». ومن هذا القبيل قوله تعالى على لسان إبليس عندما راح يوسوس لآدم ويغريه بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الاقتراب منها: «قال يا آدم: هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى»

١٦ - الأمر: وقد يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي للدلالة على معنى الأمر، نحو قوله تعالى (فهل أنتم مسلمون؟؟ أي اسلموا، وقوله تعالى: (فهل أنتم منتهون؟؟ أي انتهوا، ونحو قوله تعالى أيضاً: (ولقد يسرنا القرآن للذكر، فهل من مدكر؟) أي تذكر واتعظ، وكذلك قوله تعالى: (وقل للذين أتوا الكتاب والأمين أسلمتم؟؟ أي: اسلموا ومن هذا القبيل «أرأيت؟» أو «أرأيتك؟ فإنه استفهام خرج إلى الأمر بمعنى «أخبرني». وقد ورد هذا الأسلوب كثيراً في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: (أفأرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى؟) أي أخبروني عن هذه الأصنام الثلاثة التي كانوا يزعمون أنها تمثل بعض الملائكة، وكانوا يتقربون بها إلى الله

ومنه قوله تعالى: «أفأرأيت الذي تولى، وأعطى قليلاً وأكدى؟؟ أي أخبرني عن هذا الذي أعطى قليلاً ثم أكدى، أي توقف عن العطاء. وقوله تعالى: «أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى؟ أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى؟ أرأيت إن كذب وتولى؟؟ أي أخبرني أيها السامع عن حال هذا الرجل، هل هو على الهدى عندما منع عبداً من طاعة ربه، أو هو أمر بالتقوى عندما أمر غيره بعدم إطاعة خالقه؟ ثم أخبرني عندما كذب رسولنا وأعرض عن طاعة ربه، فهل يظن أنه يفلت من عقابنا؟ كلا.

١٧ - النهي: وقد يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معنى النهي، أي إلى طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء نحو قوله تعالى: «أتخشونهم؟ فالله أحق أن تخشوه»، أي لا تخشوهم فالله أحق أن تخشوه.

ومنه قول الشاعر:

أقول: أف للتي حملتك ثم رعتك دهرًا؟

أي لا تقل: أف لأمك.

وقول آخر:

أتخالني أرضى الهوان؟ فحاذر*** واسلم بنفسك من أبي قادر

أي لا تخلني أرضى الهوان، فحاذر... إلخ.

١٨ - العرض: ومعناه طلب الشيء بلين ورفق. ومن أدواته وألا بفتح الهمزة وتخفيف اللام، و «أما» بفتح الهمزة وتخفيف الميم. وتختص كلتا الأدوات إذا كانت للعرض بالدخول على الجملة الفعلية، نحو قوله تعالى: (ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟) ونحو: أما تزورونا فتدخل السرور علينا؟

ومنه شعراً:

الا تقول لمن لا زال منتظراً منك الجواب كلاماً يبعث الأمل؟

أما تضيف لما أسديت من نعم فضل المعونة في اللأواء والمحن؟ (١)

ألا فتى من بني ذبيان يحملني؟ وليس يحملني إلا ابن حمال (٢)

ألا فتى يورد الهندي هامته كيما تزول شكوك الناس والتهم؟

واللأواء: الشدة. وأداة العرض تختص بالدخول على الجمل الفعلية؛ لذا فكلما فتى فاعل لفعل محذوف.. والتقدير ألا يورد فتى، وألا يحملني فتى.

١٩ - التحضيض: ومعناه طلب الشيء بحثاً. ومن أدواته «لولاء» و «لوما» و «هلا» بتثنية اللام، و«ألا» بفتح الهمزة وتثنية اللام. وهذه الأدوات إذا كانت للتحضيض فإنها تختص بالدخول على جملة فعلية فعلها ماضٍ أو مستقبل.

فإذا وقع بعد أداة من هذه الأدوات فعل ماضٍ، فإن معناها يخرج إلى اللوم والتوبيخ فيها تركه المخاطب، أو يقدر فيه الترك، نحو قولك لمن قصر في الامتحان: هلا أعددت للامتحان عدته؟ ولمن جاء متأخراً: لولا حضرت مبكراً؟ ولمن تراخي وتباطأ في عمله: ألا بدأت عملك؟ ولمن تسرع في القيام بواجبه فلم يحسنه: لو ما تأنيت في أداء واجبك؟ فالتحضيض في كل هذه المعاني قد خرج إلى اللوم والتوبيخ، وذلك لوقوع الفعل الماضي بعد كل أداة تحضيض.

ومنه قول أبي فراس الحمداني من قصيدة طويلة في التشيع لآل علي والرد على خصومهم:

هلا صفحتم عن الأسرى بلا سبب للصافحين «ببدر» عن أسيركم؟

هلا كففتم عن الديباج، سوطكم؟ وعن بنات رسول الله، شتمكم؟ (١)

ومعني الديباج محمد بن عبد الله، وسمي الديباج، لحسنه، ضربه المنصور ثمانين سوطاً على رأسه.

أما إذا وقع المستقبل بعد أي أداة من الأدوات السابقة فإن معنى التحضيض يخرج إلى الحث في طلب الشيء، كقول المعلم لتلميذه الذي لا يظهر اجتهاداً: لولا تجتهد؟ ولمن لا يصغي إليه أثناء شرح الدرس: لو ما تصغي إلي؟ ولمن ينقطع عن المدرسة أحياناً: ألا تواظب على الحضور إلى المدرسة؟ ولمن يقرأ من غير جد: هلا تقرا خيراً من ذلك؟

فالتحضيض في كل هذه المعاني قد خرج إلى الحث على الفعل، وذلك لوقوع الفعل المستقبل بعد أدوات التحضيض، ومما ورد من ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: «لو ما تأتينا

بالملائكة؟؟ وفي هذا شاهد على وقوع الفعل المستقبل بعد أداة التحضيض فأفاد طلب الفعل بحث، وقد خرج الاستفهام هنا إلى معنى الأمر، أي «إيتنا بالملائكة».

وقد يلي الفعل الماضي أداة التحضيض فلا يفيد اللوم والتوبيخ وإنما يفيد الطلب بحث، وذلك لأن الماضي في تأويل الفعل المستقبل، نحو قوله تعالى: (لولا أخرجتني إلى أجل قريب؟)، إذ المعنى: لولا تأخرني إلى أجل قريب؟

وقد تستعمل أداة العرض «ألا» المفتوحة الهمزة المخففة اللام للتحضيض إذا دلت على طلب الفعل بحث نحو قوله تعالى: «ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانكم؟»، وكقولك لمن يخلف الوعد: ألا تفي بوعدك؟ ولمن يضيع وقته سدى: ألا تملأ وقتك بعمل نافع؟ وهكذا.

* * *

تلك هي أهم المعاني الزائدة التي قد يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي لأدائها عن طريق قرائن تستفاد من سياق الكلام.

وقد ذكر ابن فارس في كتابه «الصاحبي في فقه اللغة» معاني أخرى يخرج الاستخبار، أي الاستفهام عن معناه الحقيقي للدلالة عليها. وعن هذه المعاني يقول: «ويكون اللفظ استخباراً والمعنى تفجع نحو: «ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة؟» ويكون استخباراً والمعنى تبكيت، نحو: "أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟" تبكيت للنصارى فيها ادعوه، ويكون استخباراً والمعنى «استرشاد، نحو: أتجعل فيها من يفسد فيها؟؟، ويكون استخباراً، والمراد به «الإفهام» نحو قوله جل ثناؤه: (وما تلك^(١) بيمينك يا موسى؟ "، قد علم الله أن لها أمراً قد خفي على موسى عليه السلام فأعلمه من حالها ما لم يعلم، ويكون المعنى استخباراً، والمعنى "تكثير"، نحو قوله جل ثناؤه: (وكم من قرية أهلكناها؟) و «كأين من قرية أملت لها وهي ظالمة ثم أخذتها، وإلى المصير؟» ومثله:

كم من دني لها قد صرت أتبعه ولو صحا القلب عنها كان لي تبعاً

وقد يكون اللفظ استخباراً، والمعنى «إخبار وتحقيق» نحو قوله جل ثناؤه: «هل أتى على الإنسان حين من الدهر؟»، قالوا معناه: "قد أتى".

ثم يستطرد فيقول ومن دقيق باب الاستفهام أن يوضع في «الشرط» وهو في الحقيقة للجزاء، وذلك كقول القائل: إن أكرمتك تكرمني؟ المعنى: أكرمني إن أكرمتك؟ قال الله جل ثناؤه: «أفإن مات فهم الخالدون؟ تأويل الكلام: أفهم الخالدون إن مات؟ ومثله: «أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم؟» تأويله: أفتنقلبون على أعقابكم إن مات؟^(٢).

ولكن بالتأمل يمكن إدخال بعض المعاني التي أشار إليها ابن فارس في بعض المعاني السابقة التي خرج إليها الاستفهام.

كذلك ذكر ابن فارس، أن العرب ربما حذفتم همزة الاستفهام، وأورد

على ذلك الأمثلة التالية:

رفوني^(١) وقالوا: يا خويلد لم ترع فقلت، وأنكرت الوجوه، هم هم؟

أراد: أهم هم؟ وقال آخر:

لعمرك ما أدري وإن كنت دارياً شعيث بن سهم أم شعيث بن منقر؟

أي أشعيث بن سهم أم شعيث بن منقر؟

وقال عمر بن أبي ربيعة:

لعمرك ما أدري وإن كنت دارياً بسبع رمين الجمر أم بثمان؟

أي: أبسبع رمين الجمر أم بثمان؟

وعلى هذا حمل بعض المفسرين قوله جل ثناؤه في قصة إبراهيم عليه السلام «فلما رأى

القمر بازغاً قال: هذا ربي). أي: أهذا ربي؟

تدريب

بين الغرض البلاغي للاستفهام في الشواهد الآتية:

فدع الوعيد فما وعيدك ضائري * أظنين أجنحة الذباب يضير؟
من للمحافل والجحافل والسري * فقدت بفقدك نيراً لا يطلع
إلام الخلف بينكم إلاماً؟ * وهذه الضجة الكبرى علاماً؟
من لي بإنسان إذا أغضبتَه * وجهلت كان الحلم ردّ جوابه؟
«قال: يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلي؟»
«يا ويلتي ألد وأنا عجوز عقيم وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب»

رابعاً - التمني:

التمني نوع من الإنشاء الطلبي. وقد عرفه سعد الدين التفتازاني بقوله: «التمني، هو طلب حصول شيء على سبيل المحبة»

وعرفه ابن يعقوب المغربي بقوله: «هو طلب حصول الشيء بشرط المحبة ونفي الطماعية في ذلك الشيء»، فخرج ما لا يشترط فيه المحبة، كالأمر والنهي والنداء والرجاء بناء على أنه طلب، وأما نفي الطماعية فلتحقيق إخراج نوع الرجاء الذي فيه الإرادة، وإخراج غيره مما فيه الطماعية (١). ومن ذلك يتضح أن التمني : طلب أمر محبوب لا يرجى

حصوله : إما لكونه مستحيلاً، والإنسان كثيراً ما يجب المستحيل ويطلبه، وإما لكونه ممكناً غير مطموع في نيته.

فالأول: وهو طلب الأمر المحبوب الذي لا يرجى حصوله لكونه مستحيلاً، مثل قول الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يوماً
فأخبره بما فعل المشيب
وقول ابن الرومي في شهر رمضان:

فليت الليل فيه كان شهراً
ومر نهاره مر السحاب
وقول آخر:

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها
عقود مدح فما أَرْضَى لكم كلمي
ونحو قول المتنبي:

ليت الحوادث باعتني التي أخذت
مني بظلمي الذي أعطت وتجريبي
فما الحداثة من حل بمانعه
قد يوجد الحلم في الشبان والشيب (٢)

والثاني: وهو طلب الأمر المحبوب الذي لا يرجى حصوله لكونه يعيدا اما يا غير مطموع في نيته، نحو قوله تعالى: «يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، وقوله تعالى أيضاً: «يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين».

وكقول مروان بن أبي حفصة في رثاء معن بن زائدة:

فليت الشامتين به فدوه
وليت العمر مد له فطالا

واللفظ الذي يدل بأصل وضعه اللغوي على التمني هو "ليت"، وقد يتمنى بثلاثة ألفاظ أخرى لغرض بلاغي، وهذه هي: «هل» و «لعل» و "لو"

فالغرض البلاغي المنشود من وراء التمني بلفظتي «هل» و «لعل» هو إبراز المتمني المستحيل وإظهاره في صورة الممكن القريب الحصول، لكمال العناية به والشوق إليه.

فمن أمثلة «هل» قوله تعالى: «فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا»،

- وقوله تعالى أيضاً: «فهل إلى خروج من سبيل»

وقول الشاعر:

أيا منزلي سلمي سلام عليكما هل الأزمن اللاني مضين رواجع

ومن أمثلة «لعل» قوله تعالى: (وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلى أبلغ الأسباب، أسباب السموات فأطلع على إله موسى) وقول الشاعر:

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلى إلى من قد هويت أطيير

والغرض البلاغي من استعمال «لو» في التمني، هو الإشعار بعزة المتمنى وقدرته، لأن المتكلم يظهره في صورة الممنوع، إذ أن «لو» تدل بأصل وضعها على امتناع الجواب لامتناع الشرط.

و من أمثلة ذلك قوله تعالى: (فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين)، وقول جرير:

ولى الشباب حميدة أيامه لو كان ذلك يشتري أو يرجع

وقول مسلم بن الوليد:

واها لأيام الصبا وزماته لو كان أسعف بالمقام قليلا (١)

واها: كلمة للتعجب من طيب الشيء، ومعنى واها لأيام الصبا: ما أطيب أيام الصبا

وإذا كان الأمر المحبوب مما يرجى حصوله كان طلبه ترجياً. وألفاظ الرجاء التي يطلب بها الأمر المحبوب المطموع فيه والممكن حصوله هي «لعل» و «عسى».

ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: (لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) وقوله: (فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده"، وقوله: "عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها"
ومن الشعر:

لعل خيال العامرية زائر	فيسعد مهجور ويسعد هاجر
على الليالي التي أضنت بفرقتنا	جسمى ستجمعني يوماً وتجمعه (١)
عسى فرج يأتي به الله إنه	له كل يوم في خليقته أمر
عسى الأيام أن تدني حبيباً	لقيت ببعده الكرب الشدادا

وقد تستعمل "ليت" في الرجاء لغرض بلاغي هو إبراز المرجو في صورة المستحيل مبالغة في بعد نيئه.

ومن أمثلة ذلك:

فليت هوى الأحبة كان عدلاً	فحمل كل قلب ما أطاقا
ليت الملوك على الأقدار معطية	فلم يكن لديء عندها طمع
ليت المدائح تستوفي مناقبه	فما كليب وأهل الأعصر الأول؟
إن كان يجمعنا حب لغرته	فليت أنا بقدر الحب نقتسم

واضنت جسمي: أمرضته

أي ليت الملوك يعطون الشعراء على قدر فضلهم ونبل أنفسهم فلا يطمع في عطائهم دنيء خسيس. والغرة: الطلعة

خامساً - النداء:

والنوع الخامس والأخير من أنواع الإنشاء الطلبي النداء: وهو طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة ينوب كل حرف منها مناب الفعل أَدْعُو

- وأحرف النداء أو أدواته ثمان: الهمزة، و"أي"، و«يا»، و«أيا»، و«هيا» و«أ» و«أى» و«وا».

وهذه الأدوات في الاستعمال نوعان:

١ - الهمزة، وأي لنداء القريب .

٢ - والأدوات الست الأخرى لنداء البعيد.

فمن أمثلة استعمال الهمزة وأي لنداء القريب جرياً على الأصل، ما يلي

أ محمد افتح النافذة التي بجوارك.

أي زينب ناوليني كتابك لأقرأ فيه قليلاً.

أبني إن أباك كارب يومه فإذا دعيت إلى المكارم فاعجل (١)

أي صديقي إنني قصدتك لما لم أجد في الحياة غيرك شهما

ومن أمثلة استعمال الأدوات الأخرى لنداء البعيد جرياً على الأصل أيضاً.

يا ساري البرق غاد القصر واسق به من كان صرف الهوى والود يسقينا

ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا من لو على البعد حيي كان يحيينا

أيا رب قد أحسنت عوداً وبدأة إلى فلم ينهض بإحسانك الشكر

لمن تجمع الدنيا وأنت تموت؟

أيا جامع الدنيا لغير بلاغة

أما أن أن يحظى بوجهك ناظري

هيا غائباً عني وفي القلب عرشه

كم حننا لها ولساكنيها

أنعشتنا روائح من ديار

من غريب عنها وإن كان فيها

يا دار الأحباب: أهلا وسهلا

- وقد ينزل البعيد منزلة القريب، وعندئذ ينادي بالهمزة وأي، إشارة إلى قربه من القلب وحضوره في الذهن، لا يغيب عن البال.

ومن أمثلة ذلك:

بأنكم في ربع قلبي سكان (١)

أسكان نعمان الأراك تيقنوا

ونعمان الأراك: موضع في بلاد العرب، والربع: المنزل.

فأنا بمصر على هواك مقيم

أعلي إن تك بالعراق نسييتي

طال منفاي عن ثراك الحبيب

أي بلادي في القلب مثواك مهما

* وقد ينزل القريب منزلة البعيد فينادى بغير الهمزة وأي، إشارة إلى علو مرتبته، أو انحطاط منزلته، أو غفلته وشروء ذهنه.

فمن أمثلة تنزيل القريب منزلة البعيد لعلو مرتبته وارتفاع شأنه:

يا من إليه المشتكى والمفزع

يا من يرجى للشدائد كلها

لم يكن غير أن أراك رجائي

يا رجاء العيون في كل أرض

ومثلك يعطي حقه ويهب

أيا أخذاً من دهره حق نفسه

يا ربة الحسن: هل لي فيك من أمل؟ ** إني هجرت وكل الناس عاداني!

أمثلة تنزيل القريب منزلة البعيد لانحطاط منزلته:

أولئك آبائي فجنني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجمع

أيا هذا أتطمع في المعالي وما يحظى بها إلا الرجال؟

وجهك يا عمرو فيه طول وفي وجوه الكلاب طول

يأيها الرجل المدلس نفسه في جملة الكرماء والأدباء

بالبيت ينشد ربعه أو نصفه والخبز يرزأ عنده والماء (٢)

والمدلس نفسه: المخفي عيوبها، يرزأ: يصاب منه شيء قليل. والمعنى أنه يغطي على عيريه بإتشاد ربع بيت من الشعر أو نصفه، وبإعطاء شيء قليل من الخبز والماء.

* ومن أمثلة تنزيل القريب منزلة البعيد لغفلته وشروذ ذهنه، قول أبي العتاهية:

أيا من عاش في الدنيا طويلاً وأفنى العمر في قيل وقال

وأتعب نفسه فيما سيفنى وجمع من حرام أو حلال

هب الدنيا تقاد إليك عفواً أليس مصير ذلك للزوال؟

وقوله أيضاً:

أيا من يؤمل طول الحياة وطول الحياة عليه خطر

إذا ما كبرت وبان الشباب فلا خير في العيش بعد الكبر

وقد يخرج النداء عن معناه الأصلي من نداء القريب أو البعيد إلى معان أخرى تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال، كالإغراء والتحسر والزجر.

١ - ومن النداء الذي خرج عن معناه الأصلي إلى الإغراء قول أبي الطيب المتنبى مخاطباً سيف الدولة:

يا أعدل الناس إلا في معاملتي
فبك الخصام وانت الخصم والحكم
أعيذها نظرات منك صادقة
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وقول شاعر مصري معاصر:

يا بلادي اليوم فاستقبلي النو
ر، وعيشي طليقة يا بلادي
لم يعد فيك مامل للآلي كا
نوا يعيشون عيشة الأوغاد
لم يعد فيك مأرب للآلي كا
نوا يظنون أننا كالجماد
وقوله أيضاً:

يا شباب البلاد أحييتموها
وأبيتم على المدى أن تهونا
كل يوم لكم مواقف صدق
تملاً الأرض روعة وفتونا
أرسلوها في قوة وإباء
صيحة ترهب الألد الخنونا
علموه كيف احترام الأمانى
أشعروه بأننا لن ندينا

٢ - ومن النداء الذي خرج من معناه الأصلي إلى التحسر قول ابن الرومي:

يا شبابي! وأين مني شبابي؟
أذنتي حباله بانقضاب
لهف نفسي على نعيمي ولهوي
تحت أفنانه اللدان الرطاب^(١)

الانقضاب : الانقطاع، وأفنانه اللدان الرطاب : أغصانه اللينة المخضلة .

وقوله أيضاً

يا أبا القاسم الذي كنت أرجو
ه لدهري: قطعت حبل الرجاء!
وقول عربية تتحسر على ابنها:

دعوتك يا بني فلم تجبني فردت دعوتي ياساً عليا

٣ - ومن النداء الذي خرج عن معناه الأصلي إلى قول شاعر معاصر:

إلام يا قلب تستبقي مودتهم وقد أذاقوك ألواناً من الوصب؟
تظل تسعى مدى الأيام تطلبهم والعمر يذهب بين السعي والطلب
يا قلب حسبك ما قد ذقت من حرق يا قلب حسبك ما قد نلت من تعب

وقوله أيضاً:

قل لهذا الغرب: يا غرب إلاما تعشق الجور وتهوى الانقسام؟
كم بزيف القول أشقيت الورى وبمحض الكيد آذيت السلاما!
قد هبطت الشرق داء معضلا لم يفت شيخاً ولم يرحم غلاما!
كلما طفت بواد آمن.. طار عنه الأمن والخوف أقاما

٤ - وقد يخرج النداء عن معناه الأصلي إلى معانٍ أخرى غير هذه، كأن يوجه إلى «أ» الاستغاثة نحو: يا أولي القوة للضعفاء،

«ب» والتعجب، نحو: يا لجمال الربيع!

«ج» الندبة نحو: واكدي! ويا ولداه!

«د» الاختصاص نحو: بعلمكم أيها الشباب يعتز الوطن وينهض.

الحقيقة: هي إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر، كقولك: سهر محمد، فإسناد الفعل وهو السهر إلى محمد من قبيل الحقيقة؛ لأن محمداً هو الفاعل الحقيقي والمراد بمعنى الفعل مثل المصدر واسم الفاعل.

وأما المجاز العقلي: فهو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، كقولك: سهر الليل، فالفعل وهو السهر أسند إلى الليل، والليل ليس فاعلاً للسهر، بل هو زمانه، فيستحيل قيام المسند إليه السهر - بالمسند - الليل.

وكما ترى فإن المجاز العقلي يستلزم أمرين:

١- **العلاقة:** وهي الصلة بين السنة المسند والمسند إليه المجازي، وهي في المثال السابق كون الليل زماناً للسهر.

٢ - **القرينة:** وهي الدليل على أن هذا الإسناد مجازي، وقد تكون لفظية كما سيأتي، وقد تكون القرينة معنوية كقرينة سهر الليل وهي حدوث الفعل وهو السهر من الليل.

والقرينة اللفظية: هي لفظ في الكلام بصرف الإسناد عن ظاهره،

كقول الشاعر:

قد أصبحت أم الخيار تدعي علي ذنباً كله لم أصنع

ما أن رأته رأسي كراس الأصلع ميز عنه قنزعاً عن قنزع

جذب الليل أبطني أو أسرع

أفناه قيل لله للشمس اطلعي حتى إذا وارك أفقي فارجعي

يرجع الشاعر سبب لوم زوجته له وكثرة تأنيبها إياه إلى تقدم سنه وظهور الشيب في رأسه وانحسار شعره إلى الخلف، فيذكر أنه لا ذنب له كي تلومه زوجته، فهذا شأن الزمان مع الإنسان في كل الأحوال.

والشاهد في البيت حيث أسند الشاعر (ميز) إلى جذب الليالي على سبيل المجاز العقلي؛ لعلاقة السببية أو الزمانية، والقرينة لفظية وهي (قبل الله) وهذه القرينة تدل على أن الشاعر مؤمن بالله وأنه يريد المجاز العقلي لا الحقيقة.

ومثل ذلك قول الشاعر:

أشباب الصغير وأفنى الكبير	كر الغداة ومر العشي
نروح ونغدو لحاجاتنا	وحاجات من عاش لا تنقضي
ألم تر لقمان أوصى ابنه	وأوصيت عمراً ونعم الوصي
فملتنا اننا مسلمون	على دين صديقنا والنبى

ترى الشاعر وقد أسند أشباب وأفنى إلى كر الغداة ومر العشي على سبيل المجاز العقلي، من إسناد الفعل إلى سببه، والقرينة لفظية وهي البيت الأخير؛ حيث فهم أن الشاعر لا يريد المعنى الحقيقي

ثالثاً: الالتفات

معناه مأخوذ من التفات الإنسان يمينه إلى يساره وبالعكس.

في الاصطلاح يتحقق الالتفات في الكلام بإخراجه أحد طرق التعبير الثلاثة: التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى طريق آخر منها، أي من هذه الطرق، وعليه فيكون مرجع الضمير في الحاليين واحده، ويأتي الضمير الثاني علي خلاف ما ينتظر المخاطب، لأنه كان يتوقع مجيء القول على نمط واحد: تكلم أو خطاب أو غيبة.

يقوم الالتفات على أساسين:

١. أن المعبر عنه مرة بالخطاب وثانية بالغيبة أو التكلم واحدا.

٢. أن يكون التعبير الثاني على خلاف ما يتوقع السامع.

وعليه يخرج مثل قولك: أنا سلمى فإنه وإن اختلف في التعبير حيث عبر مرة بالضمير ومرة بالاسم الظاهر، وهو من قبيل الغيبة إلا أنه موافق للظاهر الذي ينتظره السامع، مثله نحن رجال، وأنتم رجال، وقوله تعالى: " قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ "

الأنبياء: ٦٢

صور الالتفات:

١ - التفات من التكلم إلى الخطاب: كقوله تعالى: «وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون (يس: ٢٢) ولم يقل: أرجع كي يلفت أنظارهم إلى أن الواجب عليهم ما داموا راجعين إليه أن يتقوه ويعبدونه؛ لأن الخلق جميعاً راجعون إليه، وقوله تعالى: « قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (الأنعام: ١٤) ولم يقل: ولا أكونن للاحتياط والتحفظ من أن ينسب الشرك لنفسه.

٢ - التفات من المتكلم إلى الغيبة: كما في قوله تعالى (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله "[الزمر: ٥٣] وذلك لاستحضار عظمة الله وقدرته بذكر اسمه مضافاً إلى الرحمة حتى يقبل كل من أسرف على نفسه على ربه، وقوله (إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر) * ويدل على أن أفضال الله تعالى نازلة واصلة، أما ذاته فعالية.

٣ - من الخطاب إلى التكلم: كما في قوله: (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود) [هود: ٩٠]. فهو يدل على الحث على فعل الأمور به؛ لأن من يربيك يستحق العبادة. وكقول الشاعر:

بعيد الشباب عصر حان مشيب

طحا بك قلب في الحسان طروب

تكلفني ليلى وقد شط وليها وعادت عواد بيننا وخطوب

طحا: ذهب، بعيد: تصغير بعد وصغر للإشارة إلى أن ذلك الوقت قريب من عنفوان الشباب، والشاهد أن الشاعر التفت من الخطاب في تكلفني إلى التكلم في ربك والأصل تكلفك.

٤ - من الخطاب إلى الغيبة: كما في قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجْرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ « [يونس: ٢٢] الشاهد: وجرين بهم بدلاً من بكم لبيان علو شأنه وقدرته وأنه لا يمكن تصورها أو حدها، وكذلك قوله: «ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد الميعاد) آل عمران ٩

٥ - من الغيبة إلى التكلم: «والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت

[فاطر: ٩] جاء بالمضارع «فتثير سحابا» بعد الماضي (أرسل استحضاراً للصورة الماضية، فقد عبر أولاً بلفظ الجلالة الذي هو (الله موصوفاً باسم الموصل وعاد عليه ضمير الغيبة (فاعل أرسل) أي هو.

تطاول ليك بالأثمد ونام الخلي ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمد
وذلك من نبأ جاني وخبرته عن أبي الأسود

الأثمد: اسم موضع والعائر: قذى تدمع منه العين

وقد جاءت صور متعددة للالتفات ١ - في هذه الأبيات، وهي:

١. من التكلم إلى الخطاب، وذلك في البيت الأول، وهذا ظاهر على مذهب السكاكي حيث إن الشاعر كان عليه أن يبدأ الكلام بضمير المتكلم فعدل عنه إلى ضمير الخطاب: فقال (تطاول)

ب - عدوله عن الخطاب إلى الغيبة كما في البيت الثاني.

ج - التفات من الغيبة إلى التكلم في البيت الثالث، والجمهور على أن البيت الأول من قبيل التجريد.

د - التفات من الغيبة إلى التكلم في البيت الثالث، والجمهور على أن البيت الأول من قبيل التجريد.

٦ - من الغيبة إلى الخطاب: ومنه قوله تعالى: (وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَرْوَاجِهِمْ [الأحزاب: ٥٠] فقد عبر أولاً بالاسم الظاهر ليدل على أن الهبة له فقط دون غيره وكان مقتضى الظاهر في غير القرآن الكريم أن يقول: له بدلاً من لك، لزيادة تأكيد اختصاص ذلك بالرسول

ومنه قوله تعالى: "وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا" [مريم: ٨٨، ٨٩] عبر عن القائلين بأسلوب الغيبة لبيان بعدهم عن الله ثم التفات إلى الخطاب لتبكيتهم.

ومنه قوله تعالى: « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ {٤} إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

الالتفات عند السكاكي:

لا يشترط أن يسبق ضمير آخر، بل يكفي بأن يكون الضمير على خلاف ما يتوقع السامع، ففي قول الشاعر:

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

تكلفني ليلي وقد شط وليها وعادت عواد بيننا وخطوب

ففي البيت الأول التفات؛ حيث كان مقتضى الظاهر أن يقول: طحا وعليه فمطالع كثير من القاصد عنده من قبيل الالتفات، لأن الشاعر عادة يبدأ فيها بخطاب نفسه.

أما الجمهور فيرى أنه لا بد من التعبير عن المعنى بطريقة من الطرق الثلاثة، ثم ينتقل إلى التعبير بطريقة غيره، ففي قول امرئ القيس:

تطاول ليلك بالأثمد ونام الخلي ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمد
وذلك من نبا جاء ني وخبرته عن أبي الأسود

فعلى رأي السكاكي التفت في البيت الأول من التكلم إلى الخطاب، ومقتضى الظاهر أن يقول: ليلي، ثم التفت في البيت الثاني على رأي الجمهور والسكاكي فقال: وبات وعبر عن نفسه بالغيبة بعد الخطاب.

وفي البيت الثالث التفتا عندهما في قوله: جاعني؛ حيث عبر بالتكلم بعد الغيبة، وهو وإن كان قد أتى به مناسبا لحديثه عن نفسه إلا أنه لما سبق بالغيبة في: وبات فإن السامع وكان ينتظر أن يكون على طريق الغيبة، لكن لما جاء بالتكلم كان التفتا لمخالفته ما قبله.



لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد.

رابعاً: الأسلوب الحكيم

ما الأسلوب الحكيم؟

هو من تصرفات الأديب في الكلام، ويدل على قوة ذكاء المتكلم وحسن تخلصه، ويكشف عن مزية في اللغة حيث تجدها معك في مواقف حرجة ينطق فيها لسانك بكلمات عذبة تخرجك من الحرج، فأسلوب الحكيم من صور مجيء الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.

وتعريفه: هو تلقي المخاطب بغير ما يترتب، إما بحمل كلامه على خلاف مراده، تنبيهها على أنه الأولى بالقصد أو السائل بغير ما يتطلب، بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهها على أنه الأولى بحاله أو المهم له، ويأتي على عدة صور، هي:

الصورة الأولى: حمل الكلام على غير المراد: كقول القبعثري للحجاج لما قال له متوعداً بالقيد: (لا حملنك على الأدهم) قال القبعثري : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب، فقد أبرز وعيده في معرض الوعد، وفضل له بأن من كان مثل الأمير وعلى صفاته فالأجدر به يعد ويكافئ ولا يتوعد ويعاقب .

فلما قال له الحجاج موضحاً أنه وعيد وليس وعداً كما فهم: حديد، قال القبعثري: لأن يكون حديداً خير من أن يكون بليداً، أي: أن الفرس القوي السريع أفضل من البليد، فقال الحجاج لأعوانه: احمלוه، فلما حملوه، قال القبعثري: سبحان الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين

فقال الحجاج: اطرحوه، قال القبعثري : منها خلقناكم وفيها نعيدكم، فصفح عنه الحجاج.

والصورة الثانية: وهي تلقى السائل بغير ما يتطلب، بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهاً للسائل على أن ذلك الغير هو الأولى بحاله أو الأهم بالنسبة له، وذلك كقوله تعالى: «يتلونك عن الأهلة قل هي مواقيت الناس والحج» [البقرة: ١٨٩] فقد سألوا عن القمر، وقالوا: لماذا يبدو الهلال دقيقاً رقيقاً كالخيط، ثم ينمو ويكبر شيئاً فشيئاً حتى يصير بدرأً، ثم يتناقص قليلاً قليلاً حتى يعود إلى المحاق؟ فسؤالهم كان عن السبب العلمي لزيادة القمر ونقصانه، فأجابهم سبحانه وتعالى: «هي مواقيت للناس والحج» [البقرة: ١٨٩] فالإجابة جاءت عن فائدة القمر وتغيير بوجهه ومنازله، بأن ذلك ليعرف الناس عدد السنين والحساب ومواقيت الحج؛ للإشارة إلى أن هذه الإجابة هي الأولى بحال الناس وحال السائلين، فلا يليق بحالهم وهم أميون أن يسألوا عن السبب العلمي لكمال أو نقصان القمر.

خامساً: القلب

والقلب أيضاً من صور إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وهو أن يجعل جزءاً من الكلام مكان الآخر وللعلماء فيه آراء:

١. الرفض مطلقاً لأنه عكس المطلوب ونقيض المراد.

٢. البعض الآخر يقبله مطلقاً لأن قلب المراد مما يحتاج.

٣. إن تضمن اعتباراً لطيفاً قبل، وإلا رد.

سادساً: التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي

ويكون لأسرار بلاغية؛ كالتأكيد على حدوث الفعل فكأنه وقع فعلاً ومن ذلك قوله تعالى: (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرنهم فلم نغادر منهم أحداً) [الكهف: ٤٧]

وقوله: « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ » [النمل: ٨٧]

يقول الشيخ الدسوقي^(١): والشاهد موجود في كل من الآيتين، وذلك لأن كلا من الفرع والصعق معنى استقبالي عبر عنه بصيغة الماضي على خلاف مقتضى الظاهر تنبيهاً عن تحقق وقوعه؛ لأن الماضي يشعر بتحقق الوقوع.

سابعاً: التعبير عن الماضي بلفظ المضارع

ويعدل النسق القرآني البديع إلى تلك الصورة في التعبير؛ ليعيد في الأذهان الصورة الماضية وكأنها واقعا ملموساً مشاهداً أمام القارئ، وقد كثر القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: «تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ» [السجدة: ١٦].

* * *

من المسلم به أن الكلام يتألف من كلمات او اجزاء، وليس من الممكن النطق بأجزاء أي كلام دفعة واحدة. من أجل ذلك كان لا بد عند النطق بالكلام من تقديم بعضه وتأخير بعضه الآخر، وليس شيء من أجزاء الكلام في حد ذاته أولى بالتقدم من الآخر، لأن جميع الألفاظ من حيث هي ألفاظ تشترك في درجة الاعتبار، هذا بعد مراعاة ما تجب له الصدارة كألفاظ الشرط والاستفهام.

وعلى هذا فتقديم جزء من الكلام أو تأخيره لا يرد اعتباراً في نظم الكلام وتأليفه، وإنما يكون عملاً مقصوداً يقتضيه غرض بلاغي أو داع من دواعيها.

وقبل الشروع في بيان هذه الدواعي وتفصيلها ينبغي التنبيه إلى أن ما يدعو بلاغياً إلى تقديم جزء من الكلام هو ذاته ما يدعو بلاغياً إلى تأخير الجزء الآخر. وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا يكون هناك مبرر لاختصاص كل من المسند إليه والمسند بدواع خاصة عند تقديم أحدهما أو تأخيره عن الآخر، لأنه إذا تقدم أحد ركني الجملة تأخر الآخر، فهما متلازمان.

والآن . . . وعلى ضوء هذه المقدمة نذكر أن أهم الدواعي والأغراض عن البلاغية التي توجب التقديم والتأخير في الكلام هي:

١ - التشويق إلى المتأخر إذا كان المتقدم مشعراً بغرابة. نحو قول الشاعر:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها *** شمس الضحا وأبو إسحق والقمر

فهنا قدم المسند إليه وهو «ثلاثة»، واتصف بصفة غريبة تشوق النفس إلى الخبر المتأخر، وهي "تشرق الدنيا ببهجتها". فأشراق الدنيا أمر يشوق النفس إلى أن تعرف هذه الأشياء الثلاثة التي جعلت الدنيا بحسنها تتألق لين وتضيء، فإذا عرفت النفس ذلك تمكن الخبر المتأخر فيها واستقر.

ومثله قول أبي العلاء المعري:

والذي حارت البرية فيه *** حيوان مستحدث من جماد

فالمسند إليه قد تقدم أيضاً هنا واتصل به ما يدعو إلى العجب ويشعر بالغرابة وهو «حارت البرية فيه»، وهذا أمر يشوق النفس ويثير فضولها إلى معرفة الخبر المتأخر.

٢ - تعجيل المسرة أو المساءة للتفاؤل أو التطير:

فالتعجيل بالمسرة نحو: الجائزة الأولى في المسابقة كانت من نصيبك

ونحو: براءة المتهم حكم بها القاضي، والإفراج عنه تم اليوم.

والتعجيل بالمساءة نحو: الفشل أصيب به العدو، والخسائر في جيشه كبيرة، ونيران الأسلحة المختلفة تطارد فلوله في كل مكان.

٣ - كون المتقدم محط الإنكار والتعجب: نحو قوله تعالى: (أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم؟؟ فإنما قدم خبر المبتدأ عليه في قوله «أراغب أنت» ولم يقل «أنت راغب، وذلك لأهمية المتقدم وشدة العناية به، وفي ذلك ضرب من التعجب والإنكار لرغبة إبراهيم عن آلهته، وأن آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها. وهذا بخلاف ما لو قال: «أنت راغب عن آلهتي؟».

أمثله شعراً قول أبي فراس الحمداني:

ومثلك يستمر عليه كذب؟

أمثلي تقبل الأقوال فيه؟

وقول شاعر آخر:

ك يثني عليك ثناء جميلاً؟

امنك اغتياب لمن في غياب

ه - تقوية الحكم وتقريره: وذلك كقولك عن شخص كريم: «هو يعطي الجزيل»، فأنت لا تريد أن غيره لا يعطي الجزيل، ولا أن تعرض بإنسان آخر يعطي القليل، ولكن تريد أن في ذهن السامع وتحقق أنه يفعل إعطاء الجزيل. فتقديم المسند إليه «هو» وتكريره في الضمير المستتر في «يعطي» أدى إلى تقوية الحكم وتقريره.

وسبب التقوى على ما ذكره عبد الفاهر الجرجاني هو أن الاسم لا يؤتى به مجرداً من العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده إليه فإذا قلت: «عبد الله» فقد أشعرت السامع بذلك أنك تريد الحديث عنه، فهذا توطئة له وتقدمة للإعلام به، فإذا جئت بالحديث فقلت: «قام، مثلاً دخل على القلب دخول المأنوس به، وذلك لا محالة أشد لثبوتيه وأنفى للشبهة وأمنع للشك. وجملة الأمر أنه ليس إعلامك بالشيء بغتة مثل الإعلام به بعد التنبيه عليه، لأن ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام. وعلى ضوء ذلك يتضح الفرق من حيث تقوية الحكم وتقريره بين «هو يعطي الجزيل» و «يعطي الجزيل».

ومن هذا القبيل قوله تعالى: (والذين هم بربهم لا يشركون، فهذا أبلغ في تأكيد نفي الإشراف مما لو قيل: والذين بربهم لا يشركون أو لا يشركون بربهم - ومنه كذلك قول أبي فراس الحمداني مخاطباً سيف الدولة:

أست وإياك من أسرة وبينني وبينك قرب النسب؟

فالبيت يشتمل على جملتين تقدم المسند إليه في الأولى وتأخر في الثانية، وليس من سبب لذلك في الحالين إلا تقرير الحكم الذي تضمنته كلتا الجملتين وتقويته.

٦ - التخصيص: وهذا يعني أن المسند إليه قد يقدم ليفيد تخصيصه بالخبر الفعلي بشرط أن يكون مسبقاً بحرف نفي نحو: ما أنا قلت هذا، أي: لم أقله ولكنه مقول غيري. فأنت في هذا المثال تنفي وقوع المقول منك، ولكنك لا تنفي وقوعه من غيرك. ولهذا لا يصح: ما أنا قلت هذا ولا غيري فتقديم المسند إليه «أنا» أفاد نفي الفعل عنك وثبوتها لغيرك.

ومن ذلك قول الشاعر:

وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضرمت في القلب نارا

فسقم الجسم بالحب وإضرار النار في القلب كلاهما ثابت موجود، ولكن قصرهما وتخصيصها بالمسند إليه المتقدم «أنا» قصد به نفي كون المتكلم هو السبب في سقم جسمه وإضرار النار في قلبه، وإثبات السبب لغيره كالحبيب مثلاً.

وكما يتقدم المسند إليه لقصره على المسند الفعل لا يتجاوزه إلى غيره وإن كان الفعل يتعداه إلى غيره، كذلك قد يتقدم المسند ويتأخر المسند إليه، بقصد قصره عليه، نحو قوله تعالى: (ولله ملك السماوات والأرض، فملك السماوات والأرض مختص بكونه لله، أي مقصور عليه ومنحصر فيه).

ومن هذا القبيل قوله تعالى في خمر أهل الجنة: «لا فيها غول»، فالغول مقصور على اتصافه بعدم حصوله في خمر الجنة ولكنه يوجد في خمور الدنيا. فتقديم المسند «فيها»، يقتضي تفضيل المنفي عنه وهو خمر الجنة على غيرها من خمور الدنيا، أي ليس فيها ما في غيرها من الغول الذي يغتال العقول ويسبب دوار الرأس وثقل الأعضاء .

٧ - التنبيه على أن المتقدم لا نعت : وذلك خاص بتقديم الخبر المسند على المبتدأ المسند إليه، نحو قوله تعالى : (ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين)، فالشاهد هنا هو في قوله: «ولكم مستقر، فلو قال ومستقر لكم» لتوهم ابتداء أن «لكم» نعت وأن خبر المبتدأ سيذكر فيها بعد، وذلك لأن حاجة النكرة إلى النعت أشد من حاجتها إلى الخبر. ولذلك تعين تقديم المسند للتنبيه على أنه خبر لا نعت.

ومن أمثله شعراً قول المتنبي:

و «فيك» إذا جنى الجاني "أناة" تظن كرامة وهي احتقار

وقول حسان بن ثابت في مدح الرسول عليه السلام:

"له همما" لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

"له راحة" لو أن معشار جودها على البر كان البر أندي من البحر

* * *

تلك هي الأغراض والدواعي البلاغية التي تقتضي التقديم والتأخير أحيانا بين في المسند والمسند إليه.

ولكن بالإضافة إلى ذلك هناك نوع آخر من التقديم يكون مقصوراً على تقديم متعلقات الفعل عليه، من مثل المفعول والجار والمجرور والحال والاستثناء وما أشبه ذلك.

فالأصل في العامل أن يقدم على المعمول، فإذا عكس الأمر فقدم المعمول على العامل فإنما يكون ذلك لغرض بلاغي يقتضيه، وفي هذه الحالة يكون التقديم أبلغ من التأخير. وفيما يلي شيء من البيان لذلك.

تقديم متعلقات الفعل عليه:

١ - فمن تقديم المفعول على الفعل قولك: «محمداً أكرمت» والأصل أكرمت محمداً، فإن في قولك بالتقديم «محمداً أكرمت» تخصيصاً لمحمد بالكرم دون غيره، وذلك بخلاف قولك «أكرمت محمداً»، لأنك إذا قدمت الفعل كنت بالخيار في إيقاع الكرم على أي مفعول شئت، بأن تقول: أكرمت خالداً أو علياً أو غيرهما. فتقديم المفعول على الفعل هنا قصد به اختصاصه به، أي اختصاص محمد دون غيره بالإكرام.

٢ - ومن تقديم الجار والمجرور على الفعل قوله تعالى: (وإلى الله ترجع الأمور، فإن تقديم الجار والمجرور دل على أن مرجع الأمور ليس إلا الله وحده، على حين لو وردت الآية من غير تقديم وقيل: «ترجع الأمور إلى الله، لاحتمل إيقاع مرجع الأمور إلى غير الله وهذا محال

٣ - ومن تقديم الحال على الفعل كقولك: «مبكراً خرجت إلى عملي»

تخصيصاً لحالة التذكير بالخروج دون غيرها من الحالات، وذلك بخلاف قولك «خرجت إلى عملي مبكراً، لأنك في تقديمك الفعل تكون بالخيار في إبقائه مقيداً بأي حالة شئت، بان تقول: خرجت إلى عملي متأخراً أو مسرعاً أو مسروراً أو غير ذلك. وكذلك يجري الأمر في بقية متعلقات الفعل.

* * *

وعلماء البلاغة ومنهم الزمخشري يرون أن تقديم متعلقات الفعل عليه على النحو السابق إنما هو للاختصاص.

ولكن ابن الأثير يرى ان تقديم متعلقات الفعل عليه يكون لواحد من غرضين: أحدهما الاختصاص، والآخر مراعاة نظم الكلام، وذلك أن يكون نظمه لا يحسن إلا بالتقديم وإذا آخر المقدم زال ذلك الحسن، وهذا الوجه عنده أبلغ وأؤكد من الاختصاص.

فمن الأول عنده وهو التقديم الذي يكون الغرض البلاغي منه الاختصاص. قوله تعالى "بل الله فاعبد وكن من الشاكرين". فإنه إنما قيل: (بل الله فاعبد) ولم يقل: «بل اعبد الله، لأن المفعول وهو لفظ الجلالة «الله» إذا تقدم وجب اختصاص العبادة به دون غيره. ولو قال: «بل اعبد» لجاز وقوع فعل العبادة على أي مفعول شاء.

ومن الثاني وهو التقديم الذي يكون الغرض البلاغي منه مراعاة نظم الكلام قوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين، ويرى الزمخشري أن التقديم في هذا الموضوع قصد به الاختصاص، ولكن ابن الأثير يرى أن المفعول لم يقدم على الفعل للاختصاص وإنما قدم لمكان نظم الكلام، لأنه لو قال: «نعبدك ونستعينك، يكن له ما لقوله: «إياك نعبد وإياك نستعين». ألا ترى أنه تقدم قوله تعالى: (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين»، فجاء بعد ذلك قوله: «إياك نعبد وإياك نستعين»، وذلك لمراعاة حسن النظم السجعي الذي هو على حرف النون.

ولو قال: «نعبدك ونستعينك، لذهبت تلك الطلاوة وزال ذلك الحسن، وهذا غير خاف على أحد من الناس فضلاً عن أرباب علم البيان.

ومما ورد فيه التقديم مراعاة لنظم الكلام أيضاً قوله تعالى: (خُدُوهُ فَعُلُوهُ {٣٠} ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوهُ {٣١})، فإن تقديم الجحيم على التصلية وإن كان فيه تقديم المفعول على الفعل إلا أنه لم يكن ههنا للاختصاص، وإنما هو للفضلية السجعية.

ولا مراء في أن هذا النظم على هذه الصورة أحسن مما لو قيل: خذوه فغلوه ثم صلوه الجحيم».

ولهذا النوع من التقديم نظائر كثيرة في القرآن منها أيضاً قوله تعالى: والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم»، والعرجون بضم العين: العود الغليظ المتصل بالنخلة وفي آخره عناقيد البلح، فإذا قطع منه شماريخ البلح يبقى منه جزء على النخلة أعوج يابساً، وهذا هو حال القمر في أول الشهر وآخره.

فتقديم المفعول القمر» على الفعل هنا ليس من باب الاختصاص، وإنما هو من باب مراعاة نظم الكلام، ولو أنه قال: «وقدرنا القمر منازل، لما كان بتلك الصورة في الحسن. ومنه كذلك قوله تعالى: (فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهره، فالغرض البلاغي من وراء تقديم مفعول كل من الفعلين السابقين عليه هو مراعاة حسن النظم السجعي.

* * *

وهناك نوع آخر من التقديم لا أحد ركني الإسناد على الآخر، ولا إلى تقديم أحد متعلقات الفعل عليه، وإنما هو مختص بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك. وهذا النوع من التقديم مما لا يحصره حد ولا ينتهي إليه، وهو يتمثل في صور شتى منها:

١ - تقديم السبب على المسبب: ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين)، فهنا قدمت العبادة على الاستعانة لأن تقديم القرية والوسيلة قبل طلب الحاجة أنجح لحصول الطلب، وأسرع لوقوع الإجابة. ولو قال: «إياك نستعين وإياك نعبد لكان جائزاً، إلا أنه لا يسد ذلك المسد، ولا يقع ذلك الموقع.

وعلى نحو منه قوله تعالى «وأنزلنا من السماء ماء طهوراً، لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً». فقدم حياة الأرض وإسقاء الأنعام على إسقاء الناس وإن كانوا أشرف محلاً، لأن حياة الأرض هي سبب لحياة الأنعام والناس. فلما كانت بهذه المثابة جعلت مقدمة في الذكر، ولما كانت الأنعام من أسباب التعيش والحياة للناس قدمها في الذكر على الناس، لأن حياة الناس بحياة أرضهم وأنعامهم، فقدم سقي ما هو سبب نمائهم ومعاشرهم على سقيهم.

٢ - تقديم الأكثر على الأقل: كقوله تعالى: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْتِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ {فاطر: ٣٢}.

وإنما قدم الظالم لنفسه للإيذان بكثرتة وأن معظم الخلق عليه، ثم أتى بعده بالمقتصدين، لأنهم قليل بالإضافة إليه، ثم أتى بالسابقين وهم أقل م القليل، أعني من المقتصدين. وهكذا قدم الأكثر وبعده الأوسط ثم ذكر الأقل آخراً، ولو عكست القضية لكان المعنى أيضاً واقعاً في موقعه، لأنه يكون قد روعي فيه تقديم الأفضل فالأفضل.

وضابط هذا النوع هو أنه إذا كان الشينان كل واحد منها مختص بصفة فأنت بالخيار في تقديم أيها شنت في الذكر كهذه الآية، فإن السابق بالخيرات مختص بصفة الفضل، والظالم لنفسه مختص بصفة الكثرة. فعلى هذا يقاس ما يأتي من الأشباه والنظائر.

ومن هذا الجنس قوله تعالى: (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع). فإنه إنما قدم الماشي على بطنه لأنه أدل على القدرة من الماشي على رجلين، إذ هو ماش بغير الآلة المخلوقة للمشي، ثم ذكر الماشي على رجلين وقدمه على الماشي على أربع، لأنه دل على القدرة أيضاً حيث كثرت آلات المشي في الأربع. وهذا من باب تقديم الأعجب فالأعجب.^١

^١ انظر المثل السائر لابن الأثير (ص ١٨٠ - ١٨٦).

التعريف والتكثير

حين عرض البلاغيون لبيان الأسرار البلاغية، في طرق التعريف سلك كثير من المباحث النحوية طريقة إلى هذا الباب، ونحاول في هذه الدراسة أن نتجنب هذه المباحث مهتمين بما يتصل بالناحية البلاغية، التي يمكن أن يلحظها دارس الأساليب، وكنا على أن ندع من بين ذلك ما ذكره البلاغيون في التعريف بالإضمار لولا ما كان منهم من لفتة طيبة ذات أثر في تعميق فهمنا لبلاغة الكلام أحببنا أن ننبه إليها.

قال البلاغيون: الأصل في الضمير الخطاب أن يكون لمعين، تقول: إن زرتني أكرمتك، تريد مخاطبا إلى كل من يتأتي منه الخطاب، وهذا يفيد الأسلوب مزية من حيث يشعر هذا العموم بأن الأمر جدير بأن يكون ذائعا، وأنه لا يختص بمخاطب دون مخاطب، تقول في حال التشهير بالعيب واللؤم: فلان لنيم، إن أكرمته أهانك، وإن أحسنت إليه أساء إليك، لا تريد مخاطبا معينا بل تريد أن أكرمه أي كرم، أو أحسن إلهي أي محسن قابل ذلك بالإساءة، وهذا كما ترى أدخل في باب التشهير والعيب، ووصفه بلؤم النفس وفساد الطبع، قال الخطيب: "أي أن سوء معاملته غير مختصة بواحد دون واحد"، وقد تجد هذا الأسلوب واردا في سياق الثناء والتنويه، ومن أحسن ما جاء في ذلك ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "بشر المشانين إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة"، فإن المراد بالأمر هنا ليس مخاطبا معينا، وإنما كل من يتأتي منه التبشير، وكان النبي الكريم يشير إلى أن كل من يصح منه التبشير يجب أن يكون مبشرا لهؤلاء المشانين إلى المساجد بالنور التام، وفي ذلك نهاية التكريم، وغاية الرضا.

معينا، وقد يراد بالخطاب العموم، فيكون موجها

وقد ذكر البلاغيون من شواهد هذه الخصوصية، أعني عموم الخطاب، قول تعالى: { وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ } {السجدة : ١٢} ، المراد بالخطاب هنا كل من تأتي منه الرؤية، وذلك للإشارة إلى

أن هذه الصورة المتناهية في الفظاعة تناهت أيضا في الظهور، فلا تختص بها رؤية راء بل كل من تتأتى منه الرؤية داخل في هذا الخطاب، وفيه إشارة أيضا إلى الرغبة في تعميق هذه الصورة الفظيعة المنكرة في وجدان كل راء لتكون زجرا بليغا للناس جميعا.. وعليك أن تجتهد في أن تقيم في نفسك هذا الموقف كما تصفه الآية.. المجرمون في كل جيل من أجيال البشرية مجتمعون جميعا، وقد وقفوا ناكسي رءوسهم خضوعا، وذلا في حضرة ذي الجبروت الذي عاشوا يتبجحون بإنكاره.

والمهم في أنواع التعريف، التعريف بالصلة؛ لأنه تكثر إشارات.

والصلة كما يقرر النحاة يجب أن تكون معلومة للمخاطب؛ لأنها وسيلة تعريف فيلزم أن تكون معروفة كقولك: الذي كنا عندنا أمس رجل عالم، فإنه يلزم أن يكون المخاطب عالما بهذه الصلة، أو بقصتها كما قالوا، وتفيد الصلة معاني منها:

الإشارة إلى زيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام كما في قوله تعالى: ﴿وَرَأَوْتَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ ، والغرض المسوق له الكلام هو تقرير نزاهة سيدنا يوسف عليه السلام، وذكر امرأة العزيز بهذه الصلة المشيرة إلى كونه في بيتها مما يقرر هذا الغرض، فقد راودته امرأة هو في بيتها، وهي متمكنة منه في كل أوقاته من ليل ونهار، وتلح وتراود ولكنه عليه السلام استعصم، وهذه غاية النزاهة، عن الفحشاء، ولو قال: وراودته زليخا أو امرأة العزيز لم تجد شيئا من ذلك، ثم إن في ذكر الصلة هنا أيضا استهجان التصريح بالاسم المنسوب إليه هذا الفعل.

ومما هو بين في العدول إلى الصلة استهجانا لذكر ما دلت عليه الصلة قول حسان يخاطب أم المؤمنين رضي الله عنها، ويبرئ نفسه مما نسب إليه في حديث الإفك:

فإن كنت قد قلت الذي قد زعمتموا ... فلا رفعت سوطي إلى أناملي

وقوله: "من الطويل"

فإن الذي قد قيل ليس بلائط ... ولكنه قول امرئ بي ماحل

وقوله: ليس بلانط، ليس بلازم ولا لاحق، والماحل: الذي يسعى بالنميمة، أراد حسان ألا يذكر اتهام عائشة في الإفك استهجانا لهذا القول واستبعادا له، فقال: الذي قد زعمتموا، كما قال في البيت الثاني: الذي قد قيل: ثم إن الصلة في التعبيرين مكنته من أن يشير في كل واحدة إشارة لطيفة ففي الأولى، قال: زعمتموا، فأشار إلى أنه زعم، وأنه ليس من وادي الصدق واليقين، قال في الثانية -قيل- بالبناء للمجهول، فأشار إلى أنه قول ساقط غير منسوب إلى عاقل يستحق أن يذكر.

ومما يكون التعريف فيه بالصلة قصدا إلى معاني فيها ذات أهمية في سياق الكلام قوله تعالى: {وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ} ١، فإن الذي يقدر على أن يتوفى الأنفس جدير بأن يعبد.

ومنه قول كعب بن زهير ما جاء عائذا برسول الله صلى الله عليه وسلم "من الكامل"

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة ... القرآن فيه مواعظ وتفصيل

قال: هداك الذي أعطاك.... ولم يقل هداك الله أو هداك ربك؛ لأن في الصلة حديثا عن عطاء الله لمحمد صلى الله عليه وسلم، ففيه تكريم للنبي، وتنويه بمقامه عند الله وفي ذلك إقرار مؤكد بنبوة النبي- صلى الله عليه وسلم-، وإعلام بإسلام كعب ثم إن القرآن فيه مواعظ وهداية، وكأنه يذكره بما يدعوه صلى الله عليه وسلم إلى العفو عنه من آيات الله الداعية إلى الصفح، وقبول الإسلام ممن جاء عائذا.

كل ذلك كان من الصلة كما ترى، ومما يتصل بهذا قول أبي نواس في الخمر: "من الكامل"

لا تخدعن عن التي جعلت ... سقم الصحيح، وصحة السقم

لم يقل: لا تخدعن عن الخمر؛ لأن التعريف بالموصولية هنا مكناه من ذكر صفات يحرص على إبرازها في الخمر، وهي ما في أفاعيلها مما يشبه التناقض، فالصحيح حين يشربها

تجري في مفاصله، فيصبيه فتور واسترخاء، فيصير كأنه سقيم، فإذا شربها السقيم صح بما تبعته فيه من نشوة وصبوة، ولم يكن ليتاح للشاعر أن يذكر هذه الأفعال للخمر لو أنه سلك طريقا غير طريق الموصول.

ومثله قول قيس: "من الطويل"

خليلي لا والله لا أملك الذي ... قضى الله في ليلي ولا ما قضى ليا

قضاها لغيري، وابتلاني بحبها ... فهلا بشيء غير ليلي ابتلانيا

الذي قضاه الله في ليلي، وفيه هو حرامه منها مع ولوعه بحبها، ولكن الشاعر لم يقل: لا أملك تعلقي بليلي مع يأسى منها، وإنما قال ما ترى، فبين من خلال الصلة أن الأمر قضاء الله، وما دام كذلك فلا عليه إلا أن يستجيب لهذا القضاء، فيظل هائما بحبها يانسا منها، وواضح أننا نذكر الصلة هنا مع اختلاف مواقعها؛ لأن الذي يعيننا هو أن نبين دلالة هذه الخصوصية سواء كانت في المسند إليه أو غيره؛ لأنها لم ترد في باب المسند، ولا في المتعلقات.

قال البلاغيون: "وقد يكون التعريف بالصلة لتبنيه المخاطب على خطئه كقول الشاعر: "من

الكامل" إن الذين ترونهم إخوانكم ... يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا

فقوله: الذين ترونهم إخوانكم، يشير إلى أنكم مخدوعون في هذا الحسبان حيث تظنون أنهم إخوانكم مع أن صدورهم تتوقد حقا عليكم، ولو قال الشاعر: أن القوم الفلاني يشفي غليل صدورهم، لذهب هذا المعنى.

وقد يكون التعريف بالصلة مشيرا إلى وجه بناء الخبر، وذلك كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} ١، فقوله: {الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي} يشير إلى أن الخبر من جنس النكال والعذاب، وهذا واضح، ومثله قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} ٢، ومثله قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ} ١، وقوله: {الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ

كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ { ٩٢ } ، وقوله: { وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ }
.٣

ومثله كثير جدا في كتاب الله حيث نجد المبتدأ يحمل من المعاني ما يهيئ النفس إلى الخبر حتى لتكاد تعرفه قبل النطق به، وهذا لعمرك فن من الكلام جزل دقيق لا يهتدي إليه إلا فطن محدث، ومنه في الشعر قول الفرزدق: "من الكامل"

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتا دعائمه أعز وأطول

والبيت من قصيدة يفخر بها الفرزدق على جرير، وقوله: الذي سمك السماء يشير إلى الخبر من نوع الرفعة، والسمو وذلك واضح.

ويفهم من كلام السكاكي أن الصلة قد تكون مشيرة إلى وجه بناء الخبر كما قلنا، وقد تكون هذه الإشارة موحية بتحقيق الخبر حين تكون الصلة كالسبب له أو الدليل عليه.

وعبارته: "وربما جعل ذريعة إلى تحقيق الخبر"، ومثال ذلك قول عبدة بن الطبيب في مفضليته: "من البسيط"

هل حبل خولة بعد الهجر موصول ... أم أنت عنها بعيد الدار مشغول؟

قال:

إن التي ضربت بيتا مهاجرة ... بكوفة الجند غالت ودها غول

وكوفة الجند: مدينة بالكوفة، وغالت: أكلت، قوله التي ضربت ...

فيه بيان لهجرتها عن دياره، وأنها ضربت بيتها هناك بعيدا عنه، وهذا يومئ عند السكاكي إلى زوال المحبة، ويبين سببها، أو يقيم على ذلك

الدليل، وتعجبني هنا لفظة الخطيب، ويبدو أنه كان أرق نفسا، وأسلس طبعا من السكاكي، قال الخطيب: والمسند إليه في البيت ليس فيه إيماء إلى وجه بناء الخبر عليه، بل لا يبعد أن يكون فيه إيماء إلى بناء نقيضه عليه، وقد أدرك الخطيب في هذا معنى دقيقا في الغزل

هو أن الحرمان من صاحبة أزكى لجنوة الحب إن كات صادقة، وهذا ما عليه أهل الرأي في الحس والشعور، وقد عبر عنه الشعراء من ذوي الطبع الصادق، قال ابن الدمينة: "من الطويل"

وقد زعموا أن المحب إذا دنا ... يمل وأن النأي يشفي من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خير من البعد
ولا يزال الشعراء يعبرون عن هذا المعنى، قال الشاعر القروي الدقيق الحس في قصيدته الحانية: "من الكامل"

لمياء هات العود نبك صبا ... راح الخريف بوردنا وندانا
لا، لا، أنا وحدي الذي تكل الصبا ... حاشا لحسك أن أقول كلانا
يقول فيها:

لكم التمسست البرء من داء الهوى ... بالبعد عنك فزدته أزمانا
أتكلف السلوان منك تكلفا ... يدني العذاب ويبعد السلوانا
ويبدو أن عبدة لم يكن صادق الحب حتى يكون شاهداً في هذا الباب، وقد قال هذا البيت بعد مضي الشباب، وفترة الصبوة، ولم يكن في نفسه الباعث القوي نحو التي ضربت بيتاً مهاجرة، وقد قال بعد البيت المذكور:

فعد عنها ولا تشغلك عن عمل ... إن الصباية بعد الشيب تضليل
وقد تفيد الصلة معنى التفخيم والتهويل لما فيها من إبهام وغموض، وذلك كقوله تعالى:
{فَعَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا عَشِيَهِمْ} ١، فالصلة تفيد

ن الذي غشيهم أمر مبهم أمره في الهول والشدة، ومنه قوله: {إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى}
١، أي: تغشاها أمور عظيمة مبهم أمرها في الجلال والكثرة، قال الزمخشري: وقد علم

بهذه العبارة أن يغاشها من الخلائق الدالة على عظمة الله، وجلاله أشياء لا يكتننها النعت، ولا يحيط بها الوصف.

ومنه قول أبي نواس: "من الكامل"

ولقد نهزت مع الغواة، بدلوهم ... وأسمت سرح اللحظ حيث أساموا

وفعلت ما فعل امرؤً بشبابه ... فإذا عصارة كل ذلك أثم

فقوله: ما فعل امرؤً بشبابه، إشارة إلى أن ما بلغه في اللهو والعبث، والمجون وشيء بالغ في الكثرة، والتنوع مبهم أمره في ذلك.

ومثله قول كثير: "من الطويل"

تجافيت عني حين لا لي حيلة ... وخلفت ما خلفت بين الجوانح

فقوله: ما خلفت يشير إلى أنها خلفت ما لا تحيط به عبارة.

وقد أحس البلاغيون بجلال هذه الأساليب الملفعة بالظلال والضباب، والتي لا ينكشف لنا المراد منها انكشافاً ضاحياً، ولا يحجب عنها حجباً قاتماً، وإنما تتراءى لنا فيها المعاني هاربة في غيم شفيف، أحس البلاغيون بجلال هذه الأساليب التي لها في النفوس سحر وخلابة، ففسروها تفسيراً نفسياً بديعاً.

قال العلوي: "إن النفس إذا وقعت على كلام غير تام بالمقصود منه تشوقت إلى كماله، فلو وقعت على تمام المقصود منه لم يبق لها هناك تشوق أصلاً؛ لأن تحصيل الحاصل محال، وإن لم تقف على شيء منه، فلا شوق لها هناك، فأما إذا عرفت من بعض الوجوه دون بعض، فإن القدر المعلوم يحدث شوقاً إلى ما ليس بمعلوم".

ومما هو ظاهر في صور الكلام أن طريق التعريف بالموصولية أشيع هذه الطرق، سواء في ذلك كلام الله سبحانه وكلام الناس، وذلك؛ لأنه مفرد متضمن جملة، ولذلك يتسع لكثير من أحوال المعارف، تقول مكان: جاءني زيد، جاءني الذي تحب لقاءه، أو تكره لقاءه، أو

الذي يذكرنا بكذا، وأو يسمنا كذا إلى آخر الصفات التي يمكن أن تدل على زيد وتعرف به، وذلك بخلاف الضمير، والعلمية والكنى، فإنها محددة جامدة في دلالة واحدة، وهذا واضح.

[اسم الإشارة]

أما تعريفه بالإشارة فقد قالوا: إنه يكون لتمييزه أكمل تمييز، أي أن اسم الإشارة بطبيعة دلالاته يحدد المراد منه تحديدا ظاهرا ويميزه تمييزا كاشفا، وهذا التحديد قد يكون مقصداً مهما للمتكلم؛ لأنه حين يكون معنيا بالحكم على المسند إليه بخبر ما، فإن تمييز المسند إليه تمييزا واضحا يمنح الخبر مزيدا من القوة والتقدير، انظر إلى قول ابن الرومي في مدح أبي الصقر الشيباني، وهو من شواهد هذا المعنى: "من البسيط"

هذا أبو الصقر فردا في محاسنه ... من نسل شيبان بين الضال والسلم

تجد الشاعر لما أراد وصف الممدوح بتفرده في المحاسن ذكره باسم الإشارة ليميزه، ويحدده ويقضي له بهذا الوصف بعد هذا التمييز الواضح.

وأبين من ذلك قوله تعالى في شأن الإفك: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ ١، قال: هذا ولم يقل هو ليبرزه ويحدده، فيقع الحكم عليه بأنه إفك مبين بعد هذا التمييز والتجسيد، وفي ذلك قدر كبير من قوة الحكم، وصدق اليقين من أنه إفك مبين، ويتكرر هذا الأسلوب بلهجته اللانمئة، ويأتي قوله: ﴿لَوْلَا إِذْ

سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ ١، فتأتي الإشارة في المرة الثانية لتجسد الحديث الدائر، ويتكرر الإخبار عنه بأنه بهتان عظيم، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾، تجد اسم الإشارة فيه لا يعني غناه أن يقول: ما يكون لنا أن نتكلم به؛ لأن في الإشارة معنى أنه لا ينبغي لنا أن نتكلم به، وإن أذاعه المرجفون، وأصبح حديثا ظاهرا معلنا؛ لأن قوة إشاعته لا تغير أنه باطل بين.

وقد أحسن الفرزدق استعمال اسم الإشارة في هذا الغرض، أعني في تمييز المشار إليه، وتحديدده ليصفه بما شاء من الصفات، وذلك فيما ترويه كتب الأدب من أن رجلاً من أهل الشام سأل هشاماً بن عبد الملك، عن علي بن الحسين من هو؟، وكان في هيئة ونضارة، فتجاهله هشام خشية أن يفتتن به أهل الشام، فقال الفرزدق: "من البسيط"

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم

إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

يكاد يمسه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

يغضي حياءً ويغضي من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتسم

أين القبائل ليست في رقابهم ... لأولية هذا أو له نعم

من يعرف الله يعرف أولية ذا ... فالدين من بيت هذا ناله الأمم

تكرر اسم الإشارة في هذه الأبيات كما ترى، والأبيات محتفظة بقوتها وتأثيرها، والتكرار أسلوب حذر كما قدمنا لا يسلم من عثراته إلا صادق الموهبة، واسم الإشارة، كما يقول علي بن عبد العزيز، ضعيف في صنعة

الشعر أي أنه ليس من الكلمات الشعرية لطبيعة دلالاته المحددة، والتي لا تنقاد بسهولة للتلوين والتظليل، أقول: إن هذه الأبيات مع هذا، وذاك لها قوتها وتأثيرها، واسم الإشارة في كل موقع من مواقعها يميز المشار إليه أكمل تمييز لتضاف إليه هذه الأوصاف العظام، ويزيد الإشارة هنا قوة أن هشاماً يتجاهله، فكان الشاعر يعارض هذا التجاهل بهذا الفيض من الإشارات التي تؤكد ذبوع مناقبه، ومعالم مآثره، وتأمل قوله: يكاد يمسه عرفان راحته ركن الحطيم"، فإنه من القول النادر، وقد بلغ فيه الفرزدق غاية ما يبلغه شاعر

بكلمة، فركن الخطيم يكاد يقبض على هذه اليد الكريمة شوقاً إليه، وتقديرًا لعوارفها فكيف تنكر أو تجهل؟

وتمييز المسند إليه باسم الإشارة ليتقرر الحكم له، من الأساليب الشائعة في الكتاب العزيز، ونعتقد أن الاستشهاد على ذلك تكلف لقوة ظهوره، ولكني أذكر صورة واحدة لتهدني إلى غيرها، أقرأ قول تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ١ .

تجد اسم الإشارة يميز في الأولى الذين ثقلت موازينهم ليتقرر الحكم عليهم بأنهم مفلحون، وفي الثانية يميز الذين خفت موازينهم ليتقرر الحكم عليهم بأنهم خسروا أنفسهم، وقد ذكرنا مثل هذا في ذكر المسند إليه، كما أن هذه الآية تصلح شاهدًا لذكر المسند إليه، وقد قلنا هناك: إن المسند إليه كان من الممكن أن يدل الكلام عليه لو حذف، ولكنه ذكر لزيادة التقرير والإيضاح، والذي نقوله في قيمة تعريفه باسم الإشارة لا يخرج عن هذا أي أن ذكره باسم الإشارة ليتقرر الحكم عليه لما في الإشارة من التمييز والوضوح، فالتقرير هناك كان سببه الذكر، والتقرير هنا سببه خصوصية في المذكور، فمثل هذا الأسلوب، ومنه أبيات الفرزدق يبحث فيه عن غرض ذكر المسند إليه،

وكذلك عن غرض تعريفه بالإشارة، ويبقى بعد ذلك بحث عن سر استعمال نوع معين من الإشارة، كالإشارة للقريب في أبيات الفرزدق، وقد يكون هذا السر هو الإشارة للبعيد في الآية الأولى، فواضح أنه السمو فلاحهم، وبعد منازلهم، والإشارة للبعيد في الآية الثانية تفيد بعدهم عن الرشد، ومنازل الفائزين، وهذا يجعلنا نقف قليلاً لنقول: إن معنى البعد والقرب الكامن في أسماء الإشارة معنى طبع خاضع لسياق الكلام ما دام الذي يصوغ الأسلوب من ذوي البصر في رياضة التراكيب، نجد البعد يعطي ألواناً متعددة، وكذلك القرب كما رأيت في الآية والشعر، وتجد مثله كثيراً، فالفرزدق، حينما يخاطب جريراً بقوله: "من الطويل"

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعنا يا جرير المجمع

نجد البعد في المسند إليه مشيراً إلى بعد منزلتهم، من أن يتناول مثل جرير، فيأتي بمثلهم، وقد رأيت دلالة البعد في الآيتين السابقتين، كما رأيت القرب في أبيات الفرزدق مشيراً إلى مخالطته القلوب، وترى القرب في قول الذهلول بن كعب العبدي أو غيره: وهو من شواهد هذا الباب: "من الطويل"

تقول ودقت نحرها بيمينها ... أبغلي هذا بالرحى المتقاعس

ففي الإشارة للقريب معنى الاستخفاف، ودنو المنزلة، وأنه لصيق بالتراب متقاعس يطحن بالرحى كما يفعل من لا بلاء له، ولهذا رد عليها الشاعر مشيراً إلى منزلته في غير هذا الباب: قال:

قلقت لها لا تعجبي وتبيني ... بلاني إذا التفت علي الفوارس
فأشار إلى منزلته في الموقف الصعب.

وضح لنا إذن أن القرب، والبعد يلقيان ظللاً مختلفة تحددها سياقات الكلام ومسالك معانيه، وهذه وتلك حين يجريها بصير بمواقع الكلمة تراها تهز الكلمات هزا يبعث مضمرات دلالاتها، وإدراك ذلك في تحليل الأسلوب عمل دقيق لا يهتدي إليه من يهمل نفسه.

قلت: إن اسم الإشارة كما يدل لفظه يعني غاية الوضوح والتمييز، وقد يكون ذلك في الأشياء المحسوسة كما في الأمثلة السابقة.

وقد يعظم المعنى في نفس المتكلم حتى يخيل إليه أنه صار شيئاً محسا يشار إليه، فيدل عليه باسم الإشارة، وفي هذه المعاني تظهر قيمة أخرى لهذه الخصوصية، فتعطي عطاء جديداً يثري المعنى، ويخصب التعبير، انظر إلى قول ابن الدمينه يخاطب صاحبه: "من الطويل"

أبيني أفي اليمنى يدك جعلتني ... فأفرح أم صيرتني في شمالك

أبيت كأني بين شقين من عصا ... حذار الردى أو خيفة من زيالك

تعالت كي أشجى وما بك علة ... تريدين قتلي قد ظفرت بذلك

يريد أن يعرف في البيت الأول منزلته عند صاحبتة، والعرب تقول في الشيء إذا كان موضع العناية والاهتمام: هو في يمينه أو تلقاه بيمينه، أو أخذه بيمينه، وإذا كان بالضد من ذلك قالوا: صيره في شماله أي أنه لم يحفل به، ولم يجعله موضع العناية، ويصور الشاعر في البيت الثاني قلقه الحذر المشغوف خوفا من فراقها، وشاهدنا في البيت الثالث في قوله: قد ظفرت بذلك، فقد خيل باسم الإشارة أن قتله صار حقيقة مجسدة يشار إليها كما يشار إلى المحسوسات البينة، وفي البعد إشارة إلى أن قتله مما لم يتيسر لمن يبيغيه، وأنه أمر بعيد ومع هذا فقد ظفرت به، ولو أن الشاعر قال: قد ظفرت به لما كان التعبير على هذا المستوى من الحسن والقوة؛ لأنه تفوته الإشارة إلى ادعاء ظهور قتله، وأنه مما لم يظفر به من يبتغيه.

قلت: إن إشارة البعد إلى معنى أن قتله لم يتيسر لمن يبتغيه، هو الذي جعل

لقوله: قد ظفرت بذلك معنى، وقد وقف عبد القاهر عند الاستئناف في هذه الجملة، والإشارة فيها وذكر أنه موضع الشاهد، والصنعة والمزية.

وهذا الاستعمال الذي يسجد المعنويات بواسطة هذه الخصوصية كثير جدًا في الشعر والكلام الجيد، وسوف نشير إلى بعض صورته في القرآن، وهي أيضا كثيرًا جدًا.

وخذ منها قوله تعالى على لسان المنكرين للبعث: ﴿قَالُوا أَنِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنِنَّا لَمَبْعُوثُونَ، لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ١.

أشاروا إلى البعث وهو أمر معنوي كما ترى بقولهم: لقد وعدنا نحن، وآباؤها هذا من قبل، فأفادوا بذلك أن القول بالبعث مما هو شائع في أجيالنا شيوعا كأنه به محدد منظور، ومع ذلك فنحن نرفضه كما رفضه آباؤنا، فكأنهم يوهمون

بذلك أن رفضهم كان بعد بحثه والنظر فيه، وتأمل قولهم بعد ذلك: {إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} ، تجد أنهم ميزوه وأبرزوه مرة ثانية في صورة محسوسة ليتقرر الحكم عليه في زعمهم أنه أساطير الأولين، ثم إن هذا الحكم بأنه أساطير الأولين كان كأنه نتيجة بحث ونظر.

وخذ قوله تعالى: {يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} ٢ .

والإشارة تفيد أن تقليب الليل، والنهار عبرة واضحة شاخصة، والبعد يفيد أنها مع وضوحها لا تهتدي بها، ولا تعرج إليها إلا النفوس المهياة لوعي آيات الله في كونه، الإشارة إذن تضع آيات الله الكبرى في المنظور الحسي، ثم تستحث وعي الإنسان ليستشرفها، وهذا لا يخطئك في كثير من الآيات

لكريمة، وراجع ما ذكرناه في آية الإفك تجد الإشارة أبرزت الأمور المعنوية لقوة شيوعها في صورة محسوسة.

ومن أشهر الأغراض التي يذكرها البلاغيون لتعريف المسند إليه باسم الإشارة، هو أن تذكر أوصافاً عديدة للشيء، ثم تذكره باسم الإشارة جاعلاً ما يترتب على تلك الأوصاف مسنداً إلى هذا الاسم، واسم الإشارة هذا يفيد أن ما يرد بعده، فالشار إليه جدير به، اقرأ قوله تعالى: {الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} ١؛ تجد أن الآية الكريمة ذكرت هؤلاء القوم، وعددت بعض أوصافهم التي تجعلهم أهلاً للخير الوارد بعد اسم الإشارة، فهم ينقضون عهد الله، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، ومن هذه أوصافه جدير بأن يكون من الخاسرين.

ومثلها قوله تعالى في أوصاف المتقين: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ، أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} ٢، وصفهم بالإيمان بالغيب،

وهذه أعلى مراتب الإيمان، ثم وصفهم بأنهم يحفظون حق الله فيقيمون الصلاة، كما يحفظون حقوق الفقراء في أموالهم فيؤتون الزكاة، ثم وصفهم بأصالة الخير في معادتهم، فهم يؤمنون بما أنزل على الأنبياء، وهكذا رشحتهم هذه الأوصاف، وجعلتهم أهلا للفلاح الواقع بعد اسم الإشارة.

ومن شواهد البلاغيين المشهورة في هذه المعنى قول حاتم الطائي:

ولله صلوك يساور همه ... ويمضي على الأحداث والدهر مقدما

فتى طلبات لا يرى الخمص ترحة ... ولا شبعة إن نالها عد مغنما

إذا ما رأى يوما مكارم أعرضت ... تيمم كبراهن ثمت صمما

يرى رمحه أو نبله ومجنه ... وذا شطب غضب الضريبة مخدما

وأحناء سرج قاتر ولجامه ... عتاد أخي هيجا وطرفا مسوما

فذلك إن يهلك فحسنى ثناؤه ... وإن عاش لم يقعد ضعيفا مذمما

فقد وصفت نفسه بأنه أخو هم، وأنه يصارع الأحداث الطاحنة، ويغالب الدهر العنيد القاهر، فلا الأحداث مع عتوها توقف مضيهِ الجسور، ولا الدهر يجبروته يوهن عزمه الحديد، ثم يذكر أنه فتى طلبات أي صاحب حاجات، وأهداف لا تنقضي عن الشبع، ولا تعباً بالجوع إنما يكون الشبع مغنما، والجوع ترحة عند ذوي الهمم الدانية، الشاعر يسمو بحاجاته فوق مطالب العيش، ثم يصف نفسه في البيت الثالث بأنه لا يقصد المكرمة المتواضعة إذا لاحت في الأفق كبرى المكارم، وإنما يتيمم كبراهن، وتلك عزمة الروح السامية المستشعرة معنى التعالي والسيادة، وقوله: "تيمم كبراهن ثمت صمما"، أي حدد هدفه، ثم جمع عزمته في تصميم قاطع ساعيا نحو أم الفضائل، وفي البيتين الرابع والخامس يذكر سلاحه، فيعد الرمح والنبل والمجن، والسيف القاطع، والخطوط في متنه، وسرج فرسه المتمكن من ظهره، ثم يضيف إلى ذلك طرفه المسوم، ثم يقول: فذلك أن يهلك فحسنى ثناؤه ... أي

صاحب هذه الصفات جدير بأن يكون ذا ذكر حسن إذا مات، وأن يكون منظورًا إليه بالثناء،
والهمة إذا عاش.

قال الخطيب معقبا على الأبيات:

"فعد له كما ترى خلاصا فاضلة من المضاء على الأحداث مقدا، والصبر على ألم الجوع
والأنفة من عد الشعب مغنا، وتيمم كبرى المكلمات، والتأهب للحرب بأدواتها، ثم عقب
ذلك بقوله: فذلك، فأفاد أنه جدير باتصافه بما ذكر بعده".

ومن المزايا البارزة لأسماء الإشارة أنها تعين المتكلم على التركيز، والإيجاز

وتفادي التكرار الذي يترهل به الأساليب، ويتناقل به وثوبها إلى القلوب، فقد تجد الباحث
يعرض المسألة بتفاصيلها، ثم يحتاج إلى إضافة قيد، أو ما يشبهه مما يعوزه إلى الإعادة،
وحينئذ تسعفه أسماء الإشارة، فيسلك سبيلا غير سبيل التكرار، ولست في حاجة إلى أن
أذكر لك شاهداً على ذلك من الكتب، وانظر إلى اسم الإشارة في قولي على ذلك تجد الشاهد.

ثم إن هذه الطريقة تكثر في كتاب الله، وقد تجد اسم الإشارة في بعض الآيات يلخص،
ويطوي صفحة كاملة من الأوامر، والنواهي بل أكثر من صفحة، اقرأ قوله تعالى في سورة
الإسراء: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا} ١، واستمر في القراءة حتى آية
رقم ٣٩، تجد فيها: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ} ٢، واسم الإشارة فيها يعود
على المذكور، ويطوي هذه الأوامر، والنواهي الواقعة بين الآيتين وهي كثيرة جداً، ويهيئ
الكلام لوصف تلك الآداب بأنها من الحكمة، في أسلوب موجز كما ترى، ولولا اسم الإشارة،
وما تميز به من شمول الدلالة لما أتيح للأسلوب هذا الإيجاز، والتركيز.

وانظر إلى قوله تعالى:

{بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا، إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا
تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا، وَإِذَا أَلْفَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ نُبُورًا، لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ نُبُورًا

وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا، قُلْ أَدْلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً
وَمَصِيرًا} ٣.

وصف ما أعده للكافرين وصفا بلغ الغاية في جمال الإشارة والوحي بالمراد، قال في جهنم:
{إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا}

فطوى وراء هذه الصورة الكثير من المعاني، ثم قال في الأخرى: إنهم يلقون فيها مكان
ضيقا مقرنين، فعرض العذاب والمعذبين في أهوال ما ترى العين، ثم جاء قوله: قل أدلك
خير فأحضر الصورة كلها مرة ثانية، وجسدها لتكون في مقابلة الصورة الثانية، صورة
الخد الذي وعده المتقون، اسم الإشارة هنا أعان على الإعادة في كلمة موجزة أبرزت هذه
الأحوال، وكأنها أحضرتها من غيب المستقبل البعيد.

وأنبه مرة ثانية إلى أن اسم الإشارة قد يفيد أكثر من معنى في السياق الواحد، وقد يصلح
ما قدمناه شاهداً لأمر غير الذي سقناه فيه، خذ لذلك قوله: {لَدَلِكْ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ
الْحِكْمَةِ} ، تجد اسم الإشارة حدد المسند إليه، وميزه ليوقع الحكم عليه بعد توضيحه
وإبرازه، وفي ذلك قدر من قوة الحكم، والعناية به لما قلنا وتجد في البعد معنى الرفع،
وأنها آداب سامية تتألق في معارج الحكمة، وتجد الإشارة صورت المعنى في صورة
محسوسة.

وخذ قوله تعالى: {وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ، وَإِنْ
يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُدْعِينَ، أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ
اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} ١، تجد اسم الإشارة يتردد فيه ثلاث مرات، وهو في كل
واحدة منها يفيد تمييز المسند إليه أكمل تمييز لمزيد العناية بالحكم الواقع بعده، ثم هو في
كل واحدة منها يفيد أن المذكور لاتصافه بالأوصاف السابقة جدير بما يقع بعده، والإضراب
في قوله: {بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} ، ناظر إلى ما بعده همزة الاستفهام في قوله:

{أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} ، وهذا واضح، وكذلك تجد معنى البعد في الأولى يومئ بما لا تجده في الآخرين، فقد ذكرت الآيات الأولى الملامح العامة للنفسية الجاحدة، وأبرزها رفض أن يكون الحكم في الأرض لله ورسوله، ثم هم يتناقضون مع هذا الرفض، ويأتون مذعنين إذا كان لهم في ذلك أرب، فهم يقبلون حكم الله عند المنفعة الذاتية فقط، والأصل عندهم هو رفضها، وهذا محور المعنى في الآية الأولى، ومن هذا حاله فهو جدير بأن يحكم عليه بأنه ظالم، والبعد يومئ إلى بعده عن ساحة الحق والعدل، والآية الثانية تقرر الصفة البارزة في الفئة المؤمنة، وهي نقيض الصفة البارزة في الفئة الجاحدة، فإذا كان هناك رفض أن يكون الحكم لله، فالملمح البارز هنا ليس هو تقرير حكومة الله فحسب، وإنما هو الانقياد الطاع لها، فهم لهذا جديرون بوصف الفلاح، لأنهم أفلحوا في الانتفاع بوجودهم المملوك لله، وأصابوا في تحديد موقف المخلوق من الخالق وهو السمع والطاعة، واسم الإشارة يومئ إلى سمو إدراكهم، ورفع منزلتهم عند الله، وهكذا يقال في الثالث.

[التعريف]

- التعريف باللام:

أما أغراض التعريف باللام، فقد قالوا: إنها تكون للإشارة إلى معهود بينك وبين مخاطبك، ومنه قول تعالى: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى} ١، أي: ليس الذكر الذي طلبته امرأة عمران كالأنثى التي وهبت لها، وكانت نذرت ما في بطنها لخدمة بيت المقدس، ولا يكون خادمة إلا ذكراً، فلما وضعتها أنثى قالت على سبيل التحسر: {رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى} ٢، ثم جاء على سبيل الاعتراض قوله: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى} ، وقد تكون اللام مفيدة معنى الجنس والحقيقة كقولك: الرجل خير من المرأة، أي جنس الرجل خير من جنس المرأة، ومنه قول أبي العلاء: "من البسيط"

والخل كالماء يبدي لي ضمائره ... مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

أراد جنس الخليل.

وقد ترد اللام في الكلام الفصيح وهي تحتل المعنيين، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ ١، فهذه اللام يصح أن تكون لام العهد أي: آمنوا كما آمن رسول الله ومن معه، ويصح أن تكون لام الجنس أي كما آمن جنس الناس، والجنسية هنا يتولد منها معنى لطيف؛ لأنها تشير إلى أنهم هم الناس الكاملون في الإنسانية، فالذين آمنوا هم جنس الناس، ومعدن الإنسانية وما عداهم، فليس منها في شيء كما أشار الزمخشري، وسوف نرى مزيداً من معاني اللام في مواضع أخرى إن شاء الله.

[التعريف بالإضافة]

قالوا: إن التعريف بالإضافة يكون؛ لأنه ليس للمتكلم طريق إلى إحضاره في ذهن السامع أخصر منه، أي: يقصد إليه رغبة في الإيجاز كقول جعفر الحارثي، وكان مسجوناً بمكة فزارته صاحبتة مع ركب من قومها، فلما رحلت قال: "من الطويل"

هواي مع الركب اليمانيين مصعد ... جنيب وجثماني بمكة موثق

وأراد بقوله: "هواي"، الذي أهوى، وأطلق الهوى على المهوي مجازاً، قالوا: وحسن هذا الاختصار؛ لأن الشاعر ضائق وسجين، وهذا أخصر طريق يؤدي به المعنى، وقد تكون الإضافة -كما قالوا- مغنية عن تفصيل يتعذر، مثل قوله: "من الطويل".

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم ... أسود لها في غيل خفان أشبل

أراد ببني مطر قومه، وتفصيل ذكرهم أمر متعذر، والغيل الشجر المجمع، وخفان مأسدة قرب الكوفة، والأشبل، أولاد الأسود، وذكر الخطيب قول الحارث الجرمي: "من الكامل".

قومي هم قتلوا أميم أخي ... فإذا رميت يصيبني سهمي

مثالاً للتعريف بالإضافة الذي أغنى عن تفصيل مرجوح أي قال: قومي ولم يذكر أسماءهم؛ لأنه لو فعل ذلك لأوغر صدورهم عليه، وعندنا أن هذه الإضافة وراءها معنى أكبر من هذا؛ لأنها ترشد إلى بشاعة جريمتهم، وترمز إلى ما في قلبه من الأسى، فإن الذين قتلوا أخاه هم قومه الذين إذا أصابتهم رميته، فإنما تصيبه معهم، الإضافة كما ترى إضافة القوم

القاتلين إلى النفس الموجوعة بهذا القتل، وقد مر بنا هذا البيت، وتأمل التناقض والتضارب الذي بني عليه البيت، والذي يكاد يتفجر به الشعر والشاعر.

وقد تكون الإضافة لتعظيم المضاف إليه كما في قوله تعالى: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ} ١، فالإضافة إلى الله سبحانه تشریف ما بعده تشریف، وقد تفيد الحث على فعل الشيء كقوله تعالى: {لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا} ٢، فإنه لما نهى المرأة عن المضارة أضاف الولد إليها استعطافاً لها، وحثاً على عدم المضارة ومثله: {وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ} ٣.

[تنكير المسند إليه]

يأتي المسند إليه نكرة؛ لأن قصد المتكلم إفادة معنى النكرة، أي: النوعية أو الأفراد.

فقولك: جاءني رجل، تعبير صالح، لأن يراد به النوعية، أي جاءني رجل

لا امرأة؛ وصالح؛ لأن يراد به الأفراد أي: جاءني رجل لا رجلان، والأفراد يعني فرداً شائعاً في جنسه، فهو رجل شائع في جنس الرجال.

قال الزمخشري في قوله تعالى: {لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ} ١: "فإن قلت: إنما جمعوا بين العدد والمعدود، فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا: عندي رجال ثلاثة وأفراس أربعة؛ لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص، وأما رجل ورجلان وفرس، وفرسان فمعدودان فيهما دلالة على العدد، فلا حاجة إلى أن يقال: رجل واحد ورجلان اثنان، فما وجه قوله: إلهين اثنين؟ قلت: الاسم الحامل لمعنى الأفراد، والتثنوية دال على الجنسية، والعدد المخصوص،

فإذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما، والذي يساق له الحديث هو العدد شفع بما يؤكد، فدل به على القصد إليه والعناية به، ألا ترى أنك لو قلت: إنما هو إله، ولم تؤكد بواحد لم يحسن، وخيل أنك تثبت الألوهية لا الوحدانية".

فالتنكير في قوله: إلهين يراد به العدد بدليل أنه شفع بقوله اثنين؛ لأن إلهين صالح للدلالة على شيئين، الجنسية والعدد، فلما وصف بما يدل على العدد تمحضت دلالاته عليه، وكذلك قوله: إله يحضها ما بعدها للمراد منها.

ومن الصور التي يراد فيها بالنكرة النوع، أي الجنس حين يأتي وصف النكرة بعدها دالا على ذلك قوله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} ٢، فإن قوله: دابة، صالح، لأن يراد به الأفراد والجنس، وقد جاء قوله في الأرض وصفا لدابة؛ لبيان أن القصد إلى الجنس لا إلى الأفراد، وكذلك قوله طائر، فإن صالح لأن يراد به طائر واحد أو جنس الطائر، ولكن قوله: يطير بجناحيه محض النكرة للدلالة على الجنس، والنكرة حين تقع في سياق النفي تدل على العموم، وعموم الجنس

هنا يشير إلى أنه ما من دابة قط في أي شعب من شعاب الأرض، وفي أي مجهل من مجاهلها، وما من طائر قط يطير في أي أفق من آفاق السماء إلا أمم أمثالكم، وهذا دال على غاية الحكمة والإتقان، وعموم النظام، وبسط الملك وتمام السلطان.

وقد يدل مقام الحديث على الأفراد، فتمحض النكرة للدلالة عليه من غير أن يحضها لذلك وصف كما في الآيتين السابقتين، مثال ذلك قوله تعالى: {وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى} ١، أي فرد من أشخاص الرجال، وقد يدل مقام الحديث على إرادة النوعية، فتمحض النكرة للدلالة عليه كقوله تعالى: {وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} ٢، أي جنس من الأغطية، ونوع منها غير ما يتعارفه الناس، وهو غطاء التعامي عن آيات الله سبحانه، قالوا: ومما يصلح للأفراد أو النوعية قوله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ} ٣، يصلح للأفراد فيكون المعنى: خلق كل نوع من أنواع الدواب، وجنس من أجناسه من نوع من أنواع المياه، وجنس من أجناسه.

هذان هما المعنيان الأساسيان للتنكير، ويردان على ما ذكرنا، ثم إن التنكير، أعني كون الشيء مجهولا ومنكورا، معنى شامل وعميق صالح، لأن يتولد منه معاني كثيرة، وذلك إذا أجراه في التعبير بصير بأحوال الكلمات خبير بسياسة التراكيب، وقد أكد عبد القاهر على

أن المهارة، والبراعة في إشباع هذه الخصوصيات بالمعاني، والإشارات هي التي بها يستحق الشاعر الفضل.

أقرأ قول أبي السمط، وهو من الشواهد المشهورة: "من الطويل"

له حاجب في كل أمر يشينه ... وليس له عن طالب العرف حاجب

تأمل التنكير في كلمة حاجب في شطري البيت، واعتبر في تأملك المغزى، ومراد الشاعر، وسوف تجد أن التنكير في الحاجب الذي يحجبه عن الخلال الشائنة ينبغي أن يكون حاجبًا عظيمًا يباعد بينه، وبينها حتى لا يقربها، ولا يكاد،

وأن نفي الحاجب الذي يحول بينه، وبين ذوي الحاجات لا بد أن يتوجه النفي هنا إلى أي حاجب مهما ضؤل لبيين أن ليس بينه، وبين قاصديه حجاب ما، ولو كان ساترًا رقيقًا، التنكير إذن في الأول للتعظيم وفي الثاني للتحقير، والكلمة واحدة، والسياق العام واحد، ولكن لكل كلمة في موقعها مقام يختلف عن الأخرى.

واقرا قول إبراهيم بن العباس: "من الطويل"

فلو إذ نبا دهر وأنكر صاحب ... وسلط أعداء وغاب نصير

تكون عن الأهواز داري بنجوة ... ولكن مقادير جرت وأمور

تجد أنه نكر دهرًا ليشير بهذا إلى أنه دهر منكر مجهول، فليس هو الدهر الذي عهده الشاعر في أيام نعمته، وولايته على الأهواز، وقد كان الشاعر عاملا عليها

من قبل الواثق بالله، ثم عزل في وزارة محمد بن عبد الملك الزيات، فهو ضائق شجر بدهر غادر، وصاحب خائن، وقد أراد بقوله: "وأنكر صاحب": أنكرت

صاحبًا، ولكنه جاء على هذا الأسلوب حتى لا يسند إنكار صاحب إلى نفسه صريحا في اللفظ، وإن كان صاحبًا لنيما محتقرا غير معروف بالصحة، ولا مشهور بخلالها، وتنكير الأعداء في قوله: "وسلط أعداء"، وفيه معنى التحقير وقلة الشأن، وأنهم ليسوا من

مشاهير الرجال، ورمز ببناء الفعل للمجهول في قوله، وسلط إلى أنهم أداة في أيدي غيرهم لا يملكون من أمرهم شيئاً، فهم لا يستطيعون عداوتي إلا إذا دفعوا إليها من مجهول ساقط، ومما حسن فيه تنكير المسند إليه قول ابن المعتز:

وإني على إشفاق عيني من العدا ... لتجمع مني نظرة ثم أطرق

فقد نكر النظرة التي جمحت منه إلى صاحبتة ليشير بهذا إلى أنها نظرة من نوع خاص، نظرة ظامنة شرود، تجمع منه جماعاً لا يستطيع معه حبسها مهما بلغ إشفاقه وخوفه من الرقباء، وانظر إلى قوله: ثم أطرق، وكيف أفادت كلمة، ثم التي تفيد التراخي: أن هذه النظرة الجامحة لم تعد إلا بعد

زمن طويل مع هذه المراقبة ومع إشفاق الشاعر، وكأنه قد شغل عن نفسه، وعن الرقباء، ووراء هذا أن محاسنها قيد الجفون، أو أنها تزيده حسناً إذا ما زادها نظر، وكما يقول ابن أبي أمية الكاتب:

أراك فلا أرد الطرف كيلا ... يكون حجاب رؤيتك الجفون

وقد يفيد التنكير معنى الكثرة كقول العرب: "إن له إبلا وإن له لغماً" يريدون بذلك: الكثرة.

وقد يفيد التنكير معنى التقليل، ومنه قوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ} ١، فالتنكير في رضوان يفيد التقليل؛ لأن المعنى وقليل من رضوان الله أكبر من كل نعيم، وهذا يلحظ في معنى هذا التنكير؛ لأن القليل من الله كثير وكثير، وانظر إلى كلام البلاغيين في بيان سر التعريف، والتنكير في قوله تعالى في قصة يحيى عليه السلام: {وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ} ٢، وفي قوله تعالى في قصة سيدنا عيسى عليه السلام: {وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ} ٣، قالوا: إن تنكير السلام في قصة يحيى عليه السلام؛ لأنه وارد من جهة الله تعالى، أي سلام من جهة الله مغن عن كل تحية، ولهذا لم يرد السلام من جهة الله إلا منكرًا كقوله تعالى: {سَلَامٌ} {قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ} ٤، وقوله: {أَهْبِطُ بِسَلَامٍ مِّنَّا} ٥، وقوله: {سَلَامٌ}

عَلَى نُوحٍ {٦}، وقوله: {سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} ٧، وأما تعريف السلام في قصة عيسى عليه السلام؛ لأنه ليس وارداً على جهة التحية من الله تعالى، وإنما هو حاصل من جهة نفسه، وفي تعريفه معنى آخر هو الدعاء، وطلب السلامة؛ لأن السلام اسم من أسمائه سبحانه، وقالوا: إنك إذا ناديت الله مخلصاً باسم من أسمائه، فإنك متعرض لما اشتق منه هذا الاسم، تقول في طلب الحاجة: يا كريم، وفي سؤال المغفرة يا غفور، وفي سؤال الرحمة يا رحيم، وفي سؤال العفو يا عفو.

وقد يفيد التنكير معنى التعظيم، والتكثير كقوله تعالى: {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ} ١، فتنكير الرسل يشير إلى أن المراد رسل كثير وذوو آيات عظام، وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن دقيق ما أفاده التنكير ما جاء في قول الشاعر، وقد ذكره صاحب المطول.

إذا سئمت مهندة يمين ... لطول الحمل بدلها شمالا

فإنه نكر يمين والمرد يمين الممدوح؛ لأنه لو قال: يمينك أو يمينه سيؤدي إلى إسناد السأم إلى يمينه، هكذا وفي ذلك جفوة ينبو عنها حس الشعر في باب المديح.

والتنكير في قوله تعالى: {وَلَنْ يَسْتَنْفِئَهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ} ٢، يفيد التقليل، أي: نفحة قليلة ضيئة، وقد رفض الخطيب هذا، وقال: إن معنى التقليل استفاد من بناء الفعل للمرة، أعني قوله نفحة؛ ولأنها تدل بمادتها على القلة؛ لأنها من قولهم: نفحته الريح إذا هبت عليه هبة، ورد ذلك بأنه لا يمنع أن يكون التنكير أيضا مفيدا للتقليل، وبذلك يكون هذا التقليل مفادا بالبناء للمرة، وبأصل الكلمة وبالتنكير، وكلمة نفح تستعمل في كلامهم للخير كنفح الطيب، ونفح الريح الناعمة، واستعملت هنا في الشر على طريق التهكم فهي من قبيل قوله -تعالى-: {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ} ٣.

قالوا: والتنكير في قوله تعالى في حكاية حديث إبراهيم عليه السلام لأبيه:

{إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ} ١ ، يفيد التعظيم والتهويل أي: أخاف أن يمسك عذاب هائل لا يكتنه، ولا يضايق هذا المعنى ذلك المسر؛ لأن المس جاء في القرآن مع العذاب المحيط، والعذاب العظيم، قال تعالى: {لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} ٢ ، كما لا يضايق هذا المعنى قوله من الرحمن من حيث إن ذكر الوصف المشعر بالرحمة الشاملة يجعل المعنى أنه عذاب قليل؛ لأنه جاء من قبل الرحمن الرحيم، لا يضايق هذا المعنى قوله من الرحمن؛ لأن عذاب الحلیم قد يكون أنكى، وغضبه قد يكون أعتى، ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "أعوذ بالله من غضب الحلیم".

وهذا الذي قلته في الآية هو كلام البلاغيين غير الزمخشري؛ لأنه لاحظ فيها معنى آخر ذا مسلك أدق وألطف، وذلك؛ لأن سيدنا إبراهيم كما قال: لم يخل هذا الكلام من حسن الأدب مع أبيه حيث لم يصرح فيه أن العذاب لاحق لاصق به لا محالة، بل إنه قال: أخاف، ولم يقل سيمسك، ثم ذكر المس، وهو أقل تمكنا من الإصابة، ونكر العذاب للتقليل، ثم ذكر به باسم الرحمن، وهذا أقر إلى طريقة حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه فيه مواضع أخرى من الكتاب العزيز.

والتنكير في قوله تعالى: {وَأِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ} ٣ ، يدل على نوع من الذهاب بالغ لا يقدر عليه إلا صاحب القدرة البالغة سبحانه.

وفي قوله تعالى: {اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا} ٤ ، لم يقل: الأرض؛ لأنه أراد اطرحوه في أرض مجهولة منكورة، لا يعرفها أحد فلا يهتدي إليه أبوه.

وهكذا يهديك النظر إلى إدراك معان لطيفة، فحين تنظر في قصيدة الحصين

ابن الحمام المري: "جزى الله أفتاء العشيرة كلها" يلفتك قوله: "من الطويل"

ولما رأيت الود ليس بنفاعي ... وأن كان يوما ذا كواكب مظلما

صبرنا وكان الصبر فينا سجية ... بأسيافنا يقطعن كفا ومعصما

نفلق هاما من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما

ترى في تنكير قوله كفا ومعصما -إشارة إلى التعظيم، والمنعة والقوة أي أننا قطعنا أكفا
قادرة على الدفع، والمنع ومعاصم لا يطبق قطعها إلا من كان على مثل حالنا من البسالة
والاقتدار، وقوله: يفلقن هاما أي رعوسا كثيرة وعزيزة، فإذا تابعت فتك قوله:

عليهن فتیان كساهم محرق ... وكان إذا يكسو أجاد وأكرما

أراد فتيانا بهما أمرها في القوة والاقتدار، ويجهلهم من كان يعرفهم لغرابة أفاعيلهم في
الطعن والكر، وكذلك كقوله:

ولولا رجال من رزام بن مازن ... وآل سبيع أو أسوءك علقما

يلفتك التنكير في رجال؛ لأن الشاعر يعني رجالا ليسوا كالرجال الذين يعرفهم الناس، وإنما
هم رجال من نوع آخر، كأنه غريب في خلانقه، وشجاعته ومروءته، أو بلغوا في معنى
الرجولية مبلغا لا يحاط به، ولولا هم لأعمل الحصين في بني محارب بن خصفة بين قيس
حتى لا تنفك منه إلا على آلة حدباء:

لأقسمت لا تنفك مني محارب ... على آلة حدباء حتى تندما

وقوله:

وحتى يروا قوما تضب لثاتهم ... يهزون أرماحا وجيشا عرمرما

وتضب لثاتهم جمع لثة بكسر اللام، أي تسيل من شهوة الحرب، وهذه

صورة في كلامهم تدل على الحرص والرغبة، يقولون: جاء فلان تضب لثته أي جاء
حريصا جياشا، والمهم التنكير في: يهزون أرماحا، فيه كما ترى معنى أرماحا عجيبة كأنها
لم تعرف قبل.

وقوله:

وأبلغ أنيسا سيد الحي أنه ... يسوس أمورًا غيرها كان أحزما

وهكذا نستطيع أن ندرك خصوصية هذه الكلمات التي أشرنا إليها، وأن وراءها ألواناً من الحس تخصب العبارة، وتثري الفائدة.

أسلوب القصر وطرقه

تعريف القصر وأركانه:

لثراء اللغة العربية وغازرة معانيها، تعبر الجملة الواحدة عن الإيجاب والسلب معاً، وهو ما يسميه البلاغيون بالقصر.

القصر لغة: الحبس وبه ورد القرآن الكريم، قال تعالى: (حور مقصورات في الخيام) [الرحمن: ٧٢]

أي مقيمات فيهن، فهي مخصوصة لإقامتهن ولبثهن ومنه قوله تعالى: وعنده قصرات الطرف عين) [الصافات: ٤٨]

والمعنى - أيضاً - على التخصيص، ففساء الجنة خصصن أزواجهن بنظراتهن وبطرفهن دون غيرهم من الرجال.

القصر اصطلاحاً:

تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص.

فإذا كنا نتحدث عن العلماء وأردنا أن نخصص أحمد زويل بالعلم دون غيره، حيث نجده أحق بهذا الوصف ممن نحن بصدد الحديث عنهم من العلماء فننقل إذن إنما العالم أحمد زويل، وبذلك نكون قد أثبتنا العلم له وحده مرة، ونفينا العلم عن غيره مما نحن بصدد الحديث عنهم من العلماء، وآثرنا مجيء الكلام على صورة القصر، لأن بعضنا كان يرى أنه ضمن فريق العمل من هو أعلم من أحمد زويل، فافتضى المقام التأكيد فجاء التعبير بجملة القصر.

وإذا كنا نتحدث عن النتيجة وقلنا: ما نجح إلا المجتهد، فقد أثبت النجاح للمجتهد ضمناً ونفي عن غير المجتهد نصاً.

أما إذا قلنا: إنما نجح المجتهد، فقد أثبت النجاح للمجتهد، وذلك إذا كان القصر بطريق العطف كالمثال السابق.

وهذا الشيء الذي أثبت أو نفي يسمى مقصوراً وبذلك نتحدث عن:

أركان القصر:

- ١ - المقصور: وهو الشيء الذي أثبتناه أو نفينا، وهو إما أن يكون صفة أو موصوفاً.
- ٢ - المقصور عليه: وهو الذي أثبت له الشيء، وهو أيضاً إما أن يكون صفة أو موصوفاً.
- ٣ - أداة القصر أو طريق القصر: وهي متعددة ذكر منها صاحب كتاب الإتيان^(١) في علوم القرآن ما يقرب من أربعة عشر طريقاً ولنبدأ من الأركان بالأداة حيث يتسنى لنا عن طريقها معرفة موضع المقصور عليه.

طرق القصر

الطريق الأولى: النفي والاستثناء: كقوله تعالى :

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم وَمَنْ يَنْقلب على عَقبِهِ فَلَئِنْ لَضُرَّ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فقد قصر محمداً - على كونه رسولا قصر موصوف على صفة (الرسالة) لا يتجاوزها إلى غيرها من الصفات كالخلود.

^١ الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ج ٣ ص ١٦١

وأصل استعمال هذه الطريق حينما يكون المخاطب جاهلاً بالحكم ولكن الصحابة رضوان الله عليهم لا ينكرون ذلك، ولكنهم لشدة حبههم له ولكن - وتعلقهم به نزلوا منزلة المنكر.

ومثله قول تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ

أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

[هود: ٨٨].

فسمى إرادته الإصلاح توفيقاً، وجعله من الله لا يحصل في وقت إلا بإرادة الله تعالى وهدية، فيها إرشاد إلى أن توفيق شعيب (في إرادة الإصلاح) من عند الله وبإذنه فهو قصر صفة على موصوف.

وقول رسول الله " ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت أو لبست فألبيت أو تصدقت فأبقيت وما دون ذلك فلغيرك" رواه مسلم، كتاب الزهد.

وقوله تعالى: «وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور * إن أنت إلا نذير» [فاطر: ٢٢، ٢٣]

فقد قصر الرسول ﷺ على صفة الإنذار قصر موصوف على صفة، إذ أنه لشدة حرصه على هداية قومه، وتفانيه في دعوتهم، وإلحاحه في توجيههم، وحزنه على عدم هداهم ذكر له الله تعالى أنك يا محمد نذير فقط لا تتعدى هذه إلى كونك هادياً، فالإنذار مهمتك التي كلفت بها أما الهداية فله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ

إِلَّا وَأَهْلِهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

وكقول الشاعر:

وما المرء إلا كاللهمال وضوئه يوافي تمام الشهر ثم يغيب
والمقصود عليه في هذه الطريق - النفي والاستثناء - يقع بعد الإلزاماً.
الطريق الثانية: القصر بـ (إنما):

* والقصر بها يكون في الأمور المعلومة الظاهرة التي يعلمها المخاطب

ويكون المقصود عليه مؤخرًا وجوبًا، كقولك: (إنما الحياة كفاح) قصر موصوف (الحياة)
على صفة (الكفاح).

وقوله تعالى: (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) (التغابن ١٥)

وكقوله تعالى: (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون)
[الحجرات: ١٠]

وكقول سعيد بن مسلم:

إنما الدنيا هبات *** وعوار مُسترده

شدة بعد رخاء *** ورخاء بعد شدة

وما سبق أمور معلومة فكون الأموال والأولاد فتنة، والمؤمنون أخوة وتقلب الدنيا وعدم
استقرارها على حال كل ذلك أحكام معلومة ولا ينكرها منكر، ولذا وردت على مقتضى
الظاهر باستعمال (إنما)، وقد يأتي الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وتستعمل إنما في
موضع الإنكار ويكون ذلك لسر بلاغي وغرض يقتضيه المقام. ذلك كقوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ

﴿١٢﴾ [البقرة: ١١، ١٢]

فقد قصرُوا أنفسهم على صفة الإصلاح ولم يكتفوا بذلك، بل بالغوا وادعوا أن أمر صلاحهم واضح ومعلوم، وليس محلاً للإنكار فاستخدموا (إنما)، وكان المقام لو في غير القرآن الكريم أن يستخدموا النفي والاستثناء مثلاً؛ ولذلك جاء الرد على دعواهم بقوله تعالى: (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) [البقرة: ١٢] فأبطل دعواهم بأبلغ وجه حيث استفتح الرد بـ (ألا) التي تُوحى بأهمية الأمر، ثم استخدم القصر (هم المفسدون) لقصرهم على صفة الإفساد دون الإصلاح التي ادعواها.

ومثلها قوله تعالى: "قَالُوا أَجِئْنَا لِنُفِكَكَ عَنِ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا

الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ (الأحقاف: ٢٢-٢٣)

الآيتان الكريمتان وردتا في سياق قصة هود عليه السلام وبدنت بقوله: ﴿وَأَذْكُرُ أَخَا عَادٍ إِذْ

أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

﴿ (الأحقاف: ٢١) والمراد به هود جاء جوابه بقوله: «إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ» [الأحقاف: ٢٣]

للدلالة على أن الخبر معلوم وواضح و هو من الأمور التي لا ينكرها منكر ولا يشك فيها مرتاب فنزل المنكر الكفرة منزلة العالم بالحكم لوضوحه واستعمل معهم طريقة القصر (إنما)، والسر البلاغي هو التوبيخ والتبكييت لهم حيث أنكروا شيئاً معلوما فلم يعتد بإنكارهم.

وقول الشاعر :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا

الْبَيْعُ مِثْلَ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ

فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿البقرة: ٢٧٥﴾

هذا دفاع الكفار عن الربا جعلوه حلالا وأصلا، فلم يشبهوه بالبيع بل شبهوا البيع به فلم يقولوا: الربا إلا كالبيع أو إنما الربا مثل البيع، بل جعلوا الربا أصلا في الحل وادعوا أن هذا الأمر معلوم فاستخدموا إنما، فرد عليهم القرآن الكريم بقوله تعالى: "لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ

الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلَ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ

مِنْ رَبِّهِ فَاتَّهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"

كما كان الرد حاسما قويا على قولهم * إنما نحن مصلحون * [البقرة: ١١]، وهكذا نكون قد علمنا أن:

- النفي والاستثناء يكون في الأمور التي يجهلها المخاطب أو ينكرها كقوله تعالى: ﴿مَا

الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ بَيَّنُّ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ

انظُرْ أَنِي يُؤْفَكُونَ ﴿ [المائدة: ٧٥]. وردًا على من زعم أنه ابن الله أو أنه إله فيكون بذلك منكر لكونه رسولاً.

- وتستعمل أيضاً لمن ينزل منزلة المنكر أو الجاهل كقوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ

مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَنَّ يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ

الشَّاكِرِينَ ﴿ [آل عمران: ١٤٤]،

- إنما تستعمل في الأمور المعلومة كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَوَقَّأُوا يُؤْتِكُمْ

أَجُورَكُمْ وَلَا يُسْأَلُكُمْ أَمْوَالِكُمْ ﴿ [محمد: ٣٦]

فالمخاطب هنا المؤمنون والسورة مدنية والحكم على الحياة معلوم.

- وتستعمل أيضاً لمن ينزل منزلة المعلوم كقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ

الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ

مِنْ رَبِّهِ فَاتَّهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿

[البقرة: ٢٧٥]

- إنما إلى جانب إفادتها القصر نفيد أيضاً التعريض، وذلك كقوله تعالى: «إنما يتذكر أولوا الألباب» [الرعد: ١٩].

فالذين يتذكرون ويتعظون هم أولو الألباب والعقول، فكأن من يتذكر والمراد بهم الكفار لا عقول لهم ليميزوا بها النافع من الضار ففيها تعريض بالذم للكفار ومثلها (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (فاطر: ٢٨)

فدلت إنما على ثبوت الخشية للعلماء ونفيها عما عداهم، ولو حذفتم إنما وقلت: يخشى الله من عباده العلماء لم يكن في الكلام تعريضا؛ لأنه لا يكون فيه نفي للخشية لله عن غير العلماء، بل يكون مجرد وصف لمن يخشى الله تعالى من عباده بكونهم علماء، ولا يتأتى أن يقع تعريض بشيء ليس في الكلام ذكر له أو دليل عليه.

يقول الإمام عبد القاهر: (أعلم أنك إذا استقرت وجدتها أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب. إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه نحو أن نعلم أن ليس الغرض من قوله تعالى: «إنما يتذكر أولوا الألباب» [الرعد: ١٩]، أن يعلم السامعون ظاهر معناه، ولكن أن يذم الكفار، وأن يقال: إنهم من فرط العناد، ومن غلبة الهوى عليهم في حكم من ليس بذئ عقل، وأنكم إن طمعت منهم في أن ينظروا ويتذكروا كنتم كمن طمع في ذلك من غير أولي الألباب، ثم إن العجب في أن التعريض الذي ذكرت لك لم يحصل من دون "إنما" فلو قلت: يتذكر أولوا الألباب لم يدل على ما دلت عليه في الآية وإن كان الكلام لم يتغير في نفسه وليس إلا أنه ليس فيه إنما" (١)

ومثال التعريض من الشعر قول العباس بن الأحنف:

أنا لم أرزق محبتها *** إنما للعبد ما رزقا

فالغرض أن يفهمك عن طريق التعريض أنه قد صار ينصح نفسه ويعلمها أنه ينبغي له أن يقطع الطمع في وصلها. ومن ذلك قوله:

يلوم في الحب من لم يدر طعم هوى *** وإنما يعذر العشاق من عشق

١ دلائل الإعجاز ٣٥٤ - ٣٥٦، ولباب المعاني ص ٢، ص ٥٢.

يقول: (١) إنه لا ينبغي للعاشق أن يلوم من تلومه في عشقه، وأنه ينبغي ألا ينكر ذلك منه فإنه لا يعلم كنه البلوى في العشق، ولو كان ابتلي به لعرف ما هو فيه فعذره.

ففيه تعريض بأن من لم يذق طعم الهوى لا ينبغي له أن يلوم العشاق، والبيت على ما فيه من تصوير جميل زادته إنما جمالا، ولكن ينبغي للمسلمات أن يكون عشقهن محدد بقانون الله فلا يتعدى الزوج وقوله:

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما نجح الأمور بقوة الأسباب

فاليوم حاجتنا إليك، وإنما يدعي الطبيب لساعة الأوصاب

يقول إنه ينبغي أن أنجح في أمري حين جعلتك السبب إليه، فإننا قد وضعنا الشيء في موضعه وطلبنا الأمر من جهته، حين استعنا بك فيما عرض من الحاجة، وعولنا على فضلك كما أن من عول على الطبيب فيما يعرض له من السقم كان قد أصاب بالتعويل موضعه وطلب الشيء من معدنه.

الطريق الثالثة من طرق القصر: هو العطف .

وأدوات العطف مع هذه الطريق هي: لا أو بل ولكن، والمقصود عليه مع العطف بلا هو المقابل لما بعدها، وإن كان العطف ببل أو لكن فالمقصود عليه هو ما بعدهما، فأنت حينما تقولين: داؤنا التفرق لا التخلف، ومرضنا الكسل لا الفقر، أحب البلاغة لا المنطق، فالمقصود عليه الأمثلة الثلاثة السابقة هو المقابل لما بعد (لا) وهو على الترتيب: التفرق إذ أنه المقابل للتخلف ثم الكسل ثم البلاغة.

أما إذا كان العطف ب(بل) أو (لكن) فإن المقصود عليه بعدهما دائما فتقولين: لا أتقن الرياضيات بل اللغة العربية.

١ دلائل الإعجاز، ص ٣٥٩.

لا أهاب العدو البعيد لكن ذوي القربي فيشترط أن يسبق لكن نهى أو نفي، فتقولين: ما الفخر بالمال لكن بالتقوى.

- والمقصود عليه في هذه الطريق هو ما بعد (بل) و (لكن) ففي المثال الأول قصر الإتيان على اللغة العربية قصر صفة على موصوف.

وفي المثال الثاني قصر المهابة على ذوي المهابة قصر صفة على موصوف، وهكذا في باقي الأمثلة ومنه أيضاً قول الشاعر:

وما شرف أن يمدح المرء نفسه ولكن أعمالاً تدم وتمدح

وما كان حين يصدق المرء ظنه ولا كل أصحاب التجارة يربح

ولا كل من ترجو لغيبك حافظاً ولا كل من ضم الوديعه يصلح

فالأبيات فيها حث للعاقل أن يسترشد إخوان الصدق الذين هم أصفياء القلوب، ومرايا المحاسن والعيوب على ما ينبهونه عليه من عيوبه ومساويه عوضاً عن تصديق المدح فيه، فقد قصر المدح الشريف على الأعمال الشريفة وليست الأقوال.

ومن القصر ببيل قوله تعالى: (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) [البقرة : ١٥٤]. فالمقصود عليه ما بعد بل (أحياء) فقد قصر الشهداء (موصوف) على الحياة (صفة) من باب قصر الموصوف على الصفة ومنه قول الشاعر:

ليس اليتيم الذي قد مات والده بل اليتيم يتيم العلم والأدب

فقد قصر اليتيم (صفة) على من حرم العلم والأدب (موصوف). ومنه قول ابن المعتز:

ليس التعجب من مواهب ماله بل من سلامتها على أوقاتها

قصر التعجب على سلامة الأموال من قبيل قصر صفة على موصوف.

الطريق الرابعة: من طرق القصر التقديم

أي تقديم ما حقه التأخر: كتقديم الخبر على المبتدأ والمفعول على الفعل، كقولك مسلمة أنا، وعلى الله توكلت، والمقصود عليه في هذا الطريق هو المقدم دائماً فيكون المثال الأول من باب قصر الموصوف (أنا) على الصفة (مسلمة)، والمثال الثاني قصر صفة (التوكل) على موصوف (لفظ الجلالة).

ومنه قوله الشاعر:

إلى الله أشكو أن في النفس حاجة تمر بها الأيام وهي كما هما

ويرى الإمام عبد القاهر^(١) أن تقديم المسند إليه على المسند الفعلي يفيد القصر بشرط أن يتقدم على المسند إليه النفي، فإن قلت (ما فعلت) كنت قد نفيت عنك فعلا لم يثبت أنه مفعول وإذا قلت: (ما أنا فعلت)، كنت نفيت عنك فعلا ثبت أنه مفعول. تفسير ذلك: أنك إذا قلت: (ما قلت هذا) كنت نفيت أن تكون قد قلت ذلك، وكنت نوظرت في شيء لم يثبت أنه مقول؟ وإذا قلت (ما أنا قلت هذا) كنت نفيت أن تكون القائل له وكانت المناظرة في شيء ثبت أنه مقول ومما هو مثال بين في أن تقديم الاسم يقتضي وجود الفعل قول المتنبي.^(٢)

وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضرمت في القلب ناراً

فالمعنى: كما لا يخفى على أن السقم ثابت موجود وليس القصد بالنفي إليه، ولكن إلى أن يكون هو الجالب له، ويكون قد جره إلى نفسه، فالشعر مقول على القطع والنفي لأن يكون هو وحده القائل له.

^١ دلائل الإعجاز، من ١٢٤.

^٢ البيت من شعر المتنبي في ديوانه وتنمة البيت: (ولكن بشعري فيك من نفسه شعر).

أقسام القصر

القصر باعتبار الطرفين:

ينقسم القصر إلى أقسام متعددة فإذا نظرنا إلى الطرفين المقصور والمقصور عليه فنرى أنه على قسمين:

١. قصر الصفة على الموصوف.

٢. قصر الموصوف على صفة.

علمنا مما سبق أن جملة القصر تفيد الإثبات والنفي معاً؛ فهي تثبت الشيء لشيء أو تنفيه عنه وهذا الشيء الذي أثبت ونفي يسمى مقصوراً ولا يخرج عند كونه صفة أو موصوفاً، والذي أثبت له يسمى مقصوراً عليه، وهو أيضاً إما أن يكون صفة أو يكون موصوفاً وعلى ذلك فإنه إذا كان المقصور صفة كان المقصور عليه موصوفاً وإذا كان المقصور موصوفاً كان المقصور عليه صفة.

ومثال الأول: ما شاعر إلا شوقي.

أما قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فمن باب قصر

الموصوف على الصفة.

ولكل من القسمين مقامه الذي يختص به ومعناه الذي لا يؤديه غيره، فإذا كان الكلام عن القادة وشجاعتهم وعددنا بعضاً من القادة وأردنا أن نذكر أن صلاح الدين تصدرهم فإن المقام يقتضي أن يكون المثال: إنما القائد صلاح الدين، وهو من القسم الأول قصر صفة (القيادة) على (صلاح الدين) موصوف.

أما إذا كان معرض الحديث عن صلاح الدين وتراه يتصف بالشاعرية أو الكتابة أو القيادة، فالمقام يقتضي أن يكون التعبير بقصر الموصوف على الصفة فتقول: إنما صلاح الدين قائد.

القصر باعتبار غرض المتكلم:

بالنظر إلى الشيء الذي نفي عنه المقصور نجد أنه إما أن يكون شيئاً عاماً أو خاصاً، فإذا كان الشيء الذي نفي عنه المقصور عاماً كان القصر حقيقياً وإلا فالقصر إضافياً. وعلى ذلك فالقصر ينقسم باعتبار غرض المتكلم إلى قسمين :

الأول: القصر الحقيقي:

كقولك: لا إله إلا الله، وكقولك ما يروي مصر من الأنهار إلا نهر النيل.

الثاني: القصر الإضافي:

كقولك إنما الشهيدة سمية، وكقولك أيضاً: زيد شاعر لا كاتب. والنفي العام إذا كان مطابقاً للواقع الخارجي يكون القصر حقيقي تحقيقي، وذلك كقوله تعالى: «إياك نعبد» [الفاحة: ٥] فقد قصر العبادة على الله سبحانه وتعالى قصر صفة على موصوف قصر حقيقياً، ومثله: إنما خاتم الأنبياء محمد، وإذا كان المنفي العام غير مطابق للواقع بل مبني على التغليب كان القصر حقيقياً ادعائياً، كقوله تعالى: (وإياك نستعين) [الفاحة: ٥] لأنه قد يستعان بغير الله تعالى في صورة الجار أو الأخ، ولكن لم تعد الآية الكريمة بهذه الاستعانات فاعتبرت كلا استعانة.

ومنه قولك (١): ما في الدار إلا زيد إذا كان في الدار غير زيد وجعل منزلة العدم.

ومن الادعائي قوله تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء) [فاطر: ٢٨] قصر صفة الخشية على موصوف (العلماء) فغير العلماء قد يخشاه ولكن لا يعتد بخشيته.

يقول الإمام (٢) وتقديم اسم الله تعالى إنما كان لأجل أن الغرض أن يبين الخاشين من هم، ويخبر بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم، ولو أخرج ذكر اسم الله وقدم (العلماء) فقليل: (إنما يخشى العلماء الله) لصار المعنى على ضد ما هو عليه الآن ولصار الغرض بيان المخشي من هو، والإخبار بأنه الله تعالى دون غيره، ولم يجب حينئذ أن تكون الخشية من الله تعالى مقصورة على العلماء، وأن يكونوا مخصوصين بها كما هو الغرض من الآية، بل كان يكون المعنى أن غير العلماء يخشون الله تعالى أيضاً، إلا أنهم مع خشيتهم الله تعالى يخشون معه غيره والعلماء لا يخشون غير الله تعالى).

ويأتي القصر الادعائي في القصر الإضافي - أيضاً - وهو أن ينزل فيه غير المقصور عليه منزلة المعدوم كقولك: إنما الشهيدة سمة تنزيلاً لشهادة غيرها منزلة المعدوم.

الخلاصة أن القصر باعتبار الواقع ينقسم إلى قسمين حقيقي وإضافي، فإن طابق الواقع كان تحقيقاً كما في قولك: لا خالق إلا الله، قصر صفة على موصوف.

القصر باعتبار المخاطب:

القصر أسلوب تدعو إليه الحاجة ويقتضيه المقام ويتنوع على حسب المخاطب، فإن كان المخاطب معتقداً الشركة كان القصر إفراداً، وإذا اعتقد المخاطب العكس كان القصر قلباً، وإذا كان المخاطب شاكاً كان القصر تعييناً وإليك بيان ذلك.

١ حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ص ٢، ص ١٧٤.

٢ دلائل الإعجاز، ص ٢٣٨.

قال تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ

لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ [البقرة: ١١، ١٢]، والمقصود (نحن) والمراد به هنا المنافقون، وهم

موصوف كما تعلم، والمقصود عليه صفة الإصلاح والمقصود باعتبار المخاطب يعد من قصر القلب حيث يعتقد السامع أنهم مفسدون؛ لأنهم منافقون، ويؤيد ذلك الحكم عليهم بالفساد في قوله تعالى: (ألا إنهم هم المفسدون) وهو قصر موصوف على صفة أيضاً وباعتبار المخاطب بعد من قصر القلب إذا جاء على عكس المعتقد عند المنافقين من كونهم مصلحين. يقول الشيخ الدسوقي^(١)

في قصر الصفة إذا اعتقد المخاطب أن القائم عمرو لا زيد تقول نفياً لذلك الاعتقاد: ما قائم إلا زيد، حصراً للقيام في زيد، ونفيه عن عمرو، وفي قصر الموصوف إذا اعتقد أن زيداً قاعد لا قائم تقول: ما زيد إلا قائم أي لا قاعد.

ثم صرح بسبب تسميته قصر قلب فقال^(٢): لأن فيه قلباً وتبديلاً لحكم المخاطب كله بغيره، بخلاف قصر الأفراد فإنه وإن كان فيه قلب وتبديل، لكن ليس لكل حكم المخاطب، بل فيه إثبات البعض ونفي البعض.

أثر القصر في وضوح الدلالة على المعاني:

التعبير بطريق القصر عن أحد المعاني لا يعد مسلماً كمالياً أو ضرباً من التنفن في القول الظاهر فقط، بل للقصر غرض جوهري يتعلق بالدلالة على المعاني بدقة متناهية، وهذا شأن العربية في تغييرها للفظ ووضعها في موضعه الذي يكشف عن المعنى المراد بحيث لو تغير مكان اللفظ لتغيرت دلالاته تبعاً له وإليك الأمثلة التالية:

^١ حاشية الدسوقي: ص ٢، ١٨٠.

^٢ المرجع السابق نفسه.

١ - إذا أردت أن تثبت أن الكتاب لمحمد دون علي فلتقل: إنما الكتاب لمحمد، ولا يصح أن يكون المثال: إنما لمحمد الكتاب؛ وذلك لأن المثال الأول يفهم منه قصر الكتاب على محمد لأن (إنما) يليها المقصور، فكأنك قلت: إنما الكتاب لمحمد لا لـ(علي) أما المثال

الثاني: إنما لمحمد الكتاب، فإن المعنى قصر محمد على الكتاب، فكأنك قلت: إنما لمحمد الكتاب لا الحقيقية مثلاً.

يقول الإمام عبد القاهر (١): (معنى ذلك: أنك إن تركت الخبر في موضعه فلم تقدمه على المبتدأ، كان الاختصاص فيه، وأن قدمته على المبتدأ، صار الاختصاص الذي كان فيه في المبتدأ).

تفسير هذا أنك تقول : (إنما هذا لك) فيكون الاختصاص في(لك) بدلالة أنك تقول : (إنما هذا لك لا لغيرك، وتقول: إنما لك هذا، فيكون الاختصاص في هذا لا ذاك، والاختصاص يكون ابدأ في الذي إذا جئت "بلا" العاطفة كان العطف عليه).

ومثله قوله تعالى: «فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب» [الرعد: ٤٠]. فالضمير في (عليك) للرسول □ مقصور و (البلاغ) مقصور عليه أي أنه عليك البلاغ لا الحساب، ولو في غير القرآن الكريم وقال : إنما البلاغ عليك لا لغيرك، وهو خلاف ما يفهم من الآية الكريمة.

ومثله أيضا قوله تعالى : إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رِضًا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ

اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ [التوبة: ٩٣]

فهي في سياق بيان أن الإثم والذنب على الذين يستأذنون ليقعدوا عن الجهاد بالرغم من تملك أسبابه، وليس الذنب على الفقراء الذين لا يملكون أدواته، فلو كان في غير القرآن الكريم وقدمنا فقلنا: إنما على الذين يستأذنونك السبيل لتغير المعنى تغييراً تاماً وصار إلى غير مراد الآية الكريمة.

١ دلالات الإعجاز: ص ٣٤٥.

فكل من يستأذن ليقعد عن الجهاد سواء ملك مقوماته أم لا فعليه المسؤولية والإثم، هذا إذا كان القصر في الجملة الاسمية يدور بين المبتدأ والخبر، تارة تقدم هذا وتارة تؤخره حسب ما يقتضيه المعنى في نفسك والمقام الذي أنت فيه.

ويكون القصر أيضاً في الجملة الفعلية فإذا أردت أن أعبر عن أن سلمي وحدها هي التي تفوقت في الجبر فأقول: ما تفوقت في الجبر إلا سلمي، وإذا أردت أن أعبر عن أن سلمي لم تتفوق في اللغة العربية بل تفوقت في الجبر فأقول: ما تفوقت سلمي إلا في الجبر.

فيتقدم في الكلام الفاعل أو المفعول على حسب المعنى المراد وترى الفاعل في القرآن الكريم مقدماً تارة كما في قوله تعالى: «قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن [الأعراف ٣٣].»

فقد قدم الفاعل (ربي) على المفعول (الفواحش)، ومثله قول رسول الله ﷺ: (إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية)، فالغرض لبيان المفعول.

والآية الكريمة جاءت رداً على الذين يحرمون على أنفسهم الطيبات من الرزق الحلال، فجاءت لتثبيت لهم أن المولى لم يحرم الطيبات، بل حرم الفواحش فقط، ولو في غير القرآن الكريم وقال قائل: إنما حرم الفواحش ربي لكان الغرض إلى الفاعل وهو لفظ الجلالة أي لم يحرمها غيره سبحانه وتعالى.

يقول الإمام عبد القاهر (١) ثم أعلم أن السبب في أن لم يكن تقديم المفعول في هذا كتأخيره، ولم يكن (ما ضرب إلا عمرو) و (ما ضرب عمرو إلا زيداً) سواء في المعنى أي أن الاختصاص يقع في واحد من الفاعل والمفعول، ولا يقع فيهما جميعاً، ثم أنه يقع في الذي يكون بعد (إلا) منهما دون الذي قبلها؛ لاستحالة أن يحدث معنى الحرف الكلمة من قبل أن يجيء الحرف وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يفترق الحال بين أن تقدم المفعول على

١ دلائل الإعجاز: ص ٣٤٠.

(إلا) فتقول: (ما ضرب زيدا إلا عمرو) و بين أن تقدم الفاعل على المفعول(ما ضرب عمرو إلا زيدا) لأننا إن زعمنا أن الحال لا يفترق جعلنا المتقدم كالتأخر في جواز حدوثه فيه، وذلك يقتضي الحال الذي هو أن يحدث معنى (إلا) في الاسم من قبل أن يجئ بها فأعرفه .وإذا عرفت أن الاختصاص مع (إلا) يقع في الذي تؤخره من الفاعل والمفعول، فكذلك يقع مع (إنما) في المؤخر منهما دون المقدم، فتقديم الفاعل أو المفعول في القصر له بالغ التأثير في المعنى و لعل الفرزدق أدرك ذلك حينما قال:

أنا الذائد الحامي الزمار وإنما *** يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

فاختار (يدافع) على (أدافع) لأن الفعل المضارع المبدوء بالهمزة فاعله ضمير مستتر وجوباً، ففي الفعل (أدافع) الفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره (أنا).

أما الفعل (يدافع) ففاعله يكون إما ضميراً أو اسماً ظاهراً مثل: يدافع الجندي عن وطنه فالفاعل ضمير مستتر جوازاً يعود على الجندي.

وعلى ذلك يكون هناك فرق بين قولك: أدافع أنا، ويدافع أنا، فأنا في المثال الأول ليست في الفاعل لأنه ضمير مستتر وجوباً في الفعل وأنا هنا توكيد للفاعل المحذوف.

أما (أنا) في المثال الثاني فهي الفاعل، ولما كان غرض الشاعر أن يكون هو الفاعل للدفاع على الأحساب والأنساب لا غيره وأن يخص نفسه ومثله بهذا الشرف العظيم تراه عمد إلى الفاعل فأخره باستخدام الفعل(يدافع) وترك (أدافع) مع أن الوزن واحد والزمن فيهما للمضارعة... وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على دقة وجمال اللغة العربية.

يقول الإمام عبد القاهر^١: تقديم المفعول على الفاعل إنما يكون إذا ذكرت المفعول قبل أن

^١ دلائل الإعجاز ص ٣٤٤

تذكر الفاعل ولا يكون ذلك إذا قلت: لا وإنما أذاع عن أحسابهم، سبيل إلى أن تذكر المفعول قبل أن تذكر الفاعل لأن ذكر الفاعل هنا هو ذكر الفعل من حيث أن الفاعل مستكن في الفعل، فكيف يتصور تقديم شيء عليه.

أما إذا أخرجت الفاعل والمفعول معاً بعد إلا فقلت: ما استلم إلا عمرو الجائزة كان الاختصاص في الفاعل (عمرو) تعني: ما استلم الجائزة إلا عمرو لا غيره، وإذا قدمت المفعول فقلت: ما استلم إلا الجائزة عمرو كان الاختصاص في المفعول لأنه الواقع بعد إلا، ولا يخفى ما في المثال من تكلف، والقصر إلى القول بأن الاختصاص يقع فيما بعد إلا سواء في ذلك كونه فاعلاً أو مفعولاً.

* * *

تدريبات على أسلوب القصر وطرقه الإصطلاحية

بين فيما يأتي نوع القصر، وعين كلاً من المقصور والمقصور عليه:

قال تعالى: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ البقرة: ٢٥٥.

وقال إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ مُحَمَّد: ٣٦.

وقال إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ الفاتحة: ٥.

وقال تعالى إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ فاطر: ٢٨.

وقال تعالى وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ آل عمران: ١٤٤.

وقال لبيد (الطويل):

وما المرء إلا كالهلال وضوئه ... يوافي تمام الشهر ثم يغيب.

وقال ابن الرومي:

- أمواله في رقاب الناس من منن ... لا في الخزائن من عين ومن نشب

- إلى الله أشكو لا إلى الناس أنني ... أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

- إنما يدافع عن أحسابكم عليّ.
- ٢ - بيّن نوع القصر، وطريقه، وعين كلا من المقصور والمقصور عليه في ما يأتي:
- ما الدهر عندك إلا روضة أنف ... يا من شمائله في دهره زهر
- ليس عار بأن يقال فقير ... إنما العار أن يقال بخيل
- يتغابى لهم وليس لموق ... بل للّب يفوق لبّ اللبيب
- يهتز عطفاه عند الحمد يسمعه ... من هزّة المجد لا من هزّة الطّرب
- وما قلت إلا الحقّ فيك ولم تزل ... على منهج من سنّة المجد لا حب
- وما العيش إلا مدهّ سوف تنقضي ... وما المال إلا هالك وابن هالك
- وما يريغون بالنّعمى مكافأة ... لكن يقضون ما للمجد من أرب
- إنّما الدنيا متاع زائل ... فاقصد فيه وخذ منه ودع
- عمر الفتى ذكره لا طول مدّته ... وموته خزيه لا يومه الدّاني
- وإنّما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشي على الأرض
- وما الدّهر إلا من رواة قصاندي ... إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

من أسرار البلاغة العلم بمواطن الوصل والفصل في الكلام، أو بعبارة أخرى العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها، والإتيان بها منشورة تستأنف واحدة منها بعد الأخرى.

وإدراك مواطن الوصل والفصل في الكلام لا تتأتى إلا للعرب الخالص، لأن اللغة لغتهم وهم ينطقون بها عن سليقة، كما لا تتأتى إلا لمن طبعوا على البلاغة وأوتوا حظاً من المعرفة في ذوق الكلام.

وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حداً للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم انه سئل عنها فقال: «البلاغة معرفة الفصل من الوصل، وذاك لغموض هذا الباب ودقة مسلكه، ولأن من يكمل له إحراز الفضيلة فيه يكمل له إحراز سائر معاني البلاغة .

«والوصل» يعني عند علماء المعاني عطف جملة على أخرى «بالواو» فقط من دون سائر حروف العطف الأخرى، كقول المتنبي:

أعز مكان في الدنا سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب (١)

الدنا : جمع دنيا، والسابح : الفرس الربيع الجري ، يقول : سرج الفرس أعز مكان لأن صاحبه يجاهد عليه في طلب المعالي، والكتاب خير جليس لأنه مأمون الأذى .

ويقصد علما المعاني «بالفصل» ترك هذا العطف، كقول الشاعر:

عادة الأيام لا أنكرها فرح تقربه في بترح

وقد قصر علماء المعاني عنايتهم في هذا الباب على البحث في عطف الجمل «بالواو»، دون بقية حروف العطف كما اشرت سابقاً، لأن «الواو» هي الأداة التي تخفى الحاجة إليها

ويتطلب فهم العطف بها دقة في الإدراك. ذلك أنها لا تدل إلا على مطلق الجمع والاشتراك، أما غيرها من أحرف العطف فتفيد مع الاشتراك معاني زائدة كالترتيب مع التعقيب في الفاء) والترتيب مع التراخي في وثم» وهلم جرا، فإذا عطفت بواحد منها ظهرت الفائدة وسهل إدراك موطنها.

وبعد ... فلكل من الفصل والوصل بالواو في الكلام مواضع خاصة تدعو إليها الحاجة ويقتضيها المقام. والآن نعرض بالشرح والتفصيل لهذه المواضع بادئين بالفصل.

مواضع الفصل

يجب الفصل في ثلاثة مواضع:

١ - أن يكون بين الجملتين اتحاد تام، وذلك بأن تكون الجملة الثانية توكيداً للأولى، أو بياناً لها، أو بدلاً منها. ويقال حينئذ إن بين الجملتين كمال الاتصال».

- فمن أمثلة الفصل الذي تكون فيه الجملة الثانية توكيداً للجملة الأولى قول الشاعر:

يهوى الثناء مبرز ومقصر*** حب الثناء طبيعة الإنسان

فالبيت هنا يشتمل على جملتين، وإذا تأملناهما وجدنا بينها اتحاداً تاماً في المعنى، فالجملة الثانية وهي «حب الثناء طبيعة الإنسان، لم تجيء إلا توكيداً للأولى وهي جملة يهوى الثناء مبرز ومقصر، فإن معنى الجملتين واحد .

ومن أمثلة هذا النوع أيضاً قول المتنبي:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي*** إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

فإذا تدبرنا جملتي البيت وجدنا بينها كذلك الحاداً تاماً في المعنى، فالجملة الثانية وهي «إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشده» لم تجيء في الواقع إلا توكيداً للجملة الأولى وهي «وما الدهر إلا من رواة قصائدي، لأن معنى الجملتين واحد.

ب . ومن أمثلة الفصل الذي تكون فيه الجملة الثانية بياناً للجملة الأولى قول الشاعر:

كفى زاجراً للمرء أيام دهره **** تروح له بالواعظات وتغتدي

فإذا تدبرنا جملي البيت وجدنا بينها اتحاداً تاماً في المعنى، فالجملة الثانية وهي «تروح له بالواعظات وتغتدي» لم تجيء في الواقع إلا لإيضاح إبهام جملة «كفى زاجراً للمرء أيام دهره» فهي بيان لها.

أمثلة هذا النوع كذلك قول الشاعر:

الناس للناس من بدو وحاضرة *** بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

فإذا تأملنا جملي هذا البيت وجدنا بينها اتحاداً تاماً في المعنى، فالجملة الثانية وهي «بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم» لم تأت إلا لإيضاح إبهام الأولى وهي «الناس للناس من بدو وحاضرة» فهي بيان لها .

ج - ومن أمثلة الفصل الذي تكون فيه الجملة الثانية بدلاً من الجملة الأولى قوله تعالى: «أمدكم بما تعلمون. أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون .

فالتأمل في الآية الكريمة يظهر أن بين جملة «أمدكم بما تعلمون» وجملة (أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون، كمال الاتصال، ذلك لأن الجملة الثانية بدل بعض من كل من الجملة الأولى، إذ الأنعام والبنون والجنات والعيون بعض ما يعلمون.

ومن أمثلة هذا النوع أيضاً قوله تعالى: "يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم». فالجملة الثانية هنا وهي «يذبحون أبناءكم» بدل بعض من كل من الأولى لأن تذييح الأبناء بعض ما يسومونهم ويحملونهم إياه من سوء العذاب.

فالجملة الثانية في كل مثال من الأمثلة السابقة مفصولة عن الجملة الأولى، ولا لهذا الفصل سوى ما بينها من تمام التآلف وكمال الاتحاد. ومن أجل ذلك يقال إن بين الجملتين (كمال الاتصال» .

* * *

٢ - والموضع الثاني من المواضع التي يجب فيها الفصل بين الجمل هو: أن يكون بين الجملتين «تباين تام»، وذلك بأن تختلفا خبراً وإنشاء، أو بالا تكون بينها مناسبة ما، ويقال حينئذ إن بين الجملتين «كمال الانقطاع».

- فمن الأمثلة التي يجب فيها الفصل بين الجملتين لاختلافها خبراً وإنشاء قول الشاعر:
لا تحسب المجد تمرًا أنت أكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

فبين الجملة الثانية والأولى في هذا البيت تمام التباين وغاية الابتعاد، لاختلافها خبراً وإنشاء، وذلك لأن الجملة الأولى إنشائية والثانية خبرية، ومن أجل ذلك تعين الفصل بينها. ومن أمثلة هذا النوع أيضاً قول الشاعر:

لست مستمطرًا لقبرك غيثًا كيف يظمأ وقد تضمن بحرا؟

فالجملة الأولى هنا خبرية والثانية إنشائية، فبينها تمام التباين ومنتهى الابتعاد، ولهذا تعين الفصل بينها لاختلافها خبراً وإنشاء.

ب - ومن الأمثلة التي يجب فيها الفصل بين الجملتين لعدم وجود مناسبة بينها قول القائل :
«كفى بالشيب داء صلاح الإنسان حفظ الوداد، و فبين الجملتين كما ترى تباين تام، إذ لا مناسبة بينها في المعنى .

وهذا الحكم ينطبق على كل جملتين لا تكون بينها مناسبة ما كقولك: «السماء ممطرة على يغدو إلى عمله مبكرًا»، وكقول الشاعر:

و إنما المرء بأصغريه كل امرئ رهن بما لديه (١)

الأصغران: القلب واللسان، ورهن بما لديه : يجازى بما عمل .

فبين الجملة الثانية هنا والجملة الأولى تمام التباين ومنتهى الابتعاد، لأنه لا مناسبة بينها مطلقاً، إذ لا رابطة في المعنى بين قوله: «وإنما المرء بأصغريه» وقوله : «كل امرئ رهن بما لديه، ففي جميع هذه الأمثلة والأمثلة التي تختلف فيها الجملتان خبراً وإنشاء نجد

الجملة الثانية مفصولة عن الجملة الأولى، ولا سر لذلك إلا كمال التباين وشدة التباعد، ولذلك يقال في هذا الموضع من مواضع الفصل إن بين الجملتين «كمال الانقطاع» .

* * *

٣ - والموضع الثالث من المواضع التي يجب فيها الفصل بين الجملتين هو أن تكون الجملة الثانية جواباً عن سؤال يفهم من الأولى، ويقال حينئذ إن بين الجملتين «شبه كمال الاتصال» .

يقولون إني أحمل الضيم عندهم أعوذ بالله أن يضام نظيري

والضيم الذل، وضامه بضيمه بفتح ياء المضارعة : أذله بذله

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : (وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف»، ففي هذه الآية الكريمة فصلت جملة «قالوا لا تخف» عن جملة « وأوجس منهم خيفة، لأن بينها شبه كمال الاتصال، إذ الثانية جواب لسؤال يفهم من الأولى، كان سائلاً سأل: فماذا قالوا له حين رأوه قد أحس منهم خوفاً؟ فأجيب «قالوا لا تخف» .

أمثلة هذا النوع من الفصل أيضاً قول الشاعر :

فبين جملة «أعوذ بربي من فأجاب ان يضام نظيري، وجملة ويقولون إني أحمل الضيم عندهم» شبه كمال الاتصال، لأن الثانية جواب عن سؤال نشأ الأولى، فكان الشاعر بعد أن أتى بالشطر الأولى من البيت أحس أن سائلاً يقول له: «وهل ما يقولونه من أنك تتحمل الضيم صحيح؟» فأجاب بالشطر الثاني .

ففي هذين المثالين نرى أن الجملة الثانية في كليهما مفصولة من الأولى، ولا سبب لهذا الفصل إلا قوة الرابطة المعنوية بين الجملتين، فإن الجواب شديد الارتباط بالسؤال، فأشبهت الحال هنا من بعض الوجوه حال كمال الاتصال» السابقة الذكر. ومن أجل ذلك يقال إن بين الجملتين "شبه كمال الاتصال" .

تلك هي مواضع الفصل الثلاثة بين الجمل في الكلام، وفيها يلي تجميع للقواعد التي تحكمها.

أ - الوصل عطف جملة على أخرى بالواو، والفصل ترك هذا العطف .

ب - يجب الفصل بين الجملتين في ثلاثة مواضع :

١ - أن يكون بين الجملتين اتحاد تام ، وذلك بأن تكون الجملة الثانية توكيداً للأولى، أو بياناً لها، أو بدلاً منها. وفي هذه الأحوال الثلاثة يقال إن موجب الفصل بين الجملتين هو " كمال الاتصال " .

٢ - أن يكون بين الجملتين تباين تام، وذلك بأن يختلفا خبراً وإنشاءً، أو بالأ تكون بينها أي مناسبة معنوية . وفي هاتين الحالتين يقال إن موجب الفصل بين الجملتين هو " كمال الانقطاع " .

٣ - أن تكون الجملة الثانية جواباً عن سؤال يفهم من الأولى .

وفي هذه الحالة يقال إن موجب الفصل بين الجملتين هو «شبه كمال الاتصال» .

وفيما يلي طائفة أخرى أمثلة الفصل يستطيع الدارس أن يتبين مواضعها وموجبات الفصل فيها على ضوء الشرح السابق.

١ - قال تعالى: «إن الذين كفروا بربهم سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون» .

٢ - وقال تعالى: «يدبر الأمر يفصل الآيات» .

٣ - وقال تعالى: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) .

٤ - وقال تعالى: (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كان لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً" .

٥ - أصون عرضي بمالي لا أدنسه لا ببارك الله بعد العرض في المال

- ٦- أعلمت من حملوا على الأعواد
أعلمت كيف خبا ضياء النادي ؟
- ٧- الرأي قبل شجاعة الشجعان
هو أول وهي المحل الثاني
- ٨- حسب الخليلين نأي الأرض بينها
هذا عليها وهذا تحتها بالي(١)
- ٩- يا من يقتل من أراد بسيفه
أصبحت من قتلاك بالإحسان
- ١٠- لا يعجبك إقبال يريك سنا
إن الخمود لعمرى غاية الضرم(٢)
- ١١- لا تسأل المرء عن خلائقه
في وجهه شاهد من الخبر
- ١٢- أقول له ارحل لا تقيمن عندنا
وإلا فكن في السر والجهر مسلما
- ١٣- قال لي كيف أنت؟ قلت : عليل
سهر دائم وحزن طويل
- ١٤- يا وارداً سور عيش كله كدر
أنفقت عمرك في أيامك الأول(٣)
- ١٥- إن نيوب الزمان تعرفني
انا الذي طال عجمها عودي (٤)

(١) حسب الخليلين كفاهما، والنأي : البعد، والبالى: الفاني والممزق، يقول : كفاني واخي حيلولة الأرض بيتنا، فأنا حي فوقها، وهو بالي الجسم تحتها، وهذا نهاية البعد. البيت قاله النابغة في رثاء أخ له

(٢) السنا: ضوء البرق، وخمود النار: سكون لهبها، والضرم : اشتعال النار والتهابها .

(٣) سور العيش: بقيته.

(٤) عجم العود: عضه ليعرف أصلب هو أم رخو.

١٦ - لا الدمع غاض ولا فؤادك سال دخل الحمام عريئة الرنبال(١)

١٧ - وما أنا بالباغي على الحب رشوة ضعيف هوى يبغى عليه ثواب

١٨ - ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا إن السماء تُرجى حين تحتجب (٢)

١٩ - من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

٢٠ - لا تنكري عطل الكريم من الغنى السيل حرب للمكان العالي

٢١ - بعيد عن الخلان في كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد

٢٢ - زعم العواذل أنني في غمرة صدقوا ولكن غمرتي لا تتجلي

٢٣ - ونحن أناس لا توسط عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

(مواضع الوصل)

ويجب الوصل بين الجملتين في ثلاثة مواضع أيضاً:

١ - إذا قصد إشراك الجملتين في الحكم الإعرابي. وتفصيل ذلك أنه إذا أنت جملة بعد جملة وكان للأولى محمل من الإعراب وقصد تشريك الثانية لها في هذا الحكم فإنه يتعين في هذه الحالة عطف الثانية على الأولى بالواو، تماماً كما يعطف مفرد على مفرد بالواو لاشتراكها في حكم إعرابي واحد.

(١) الحمام: الموت، وعريئة الأسد: مأواء، والرنبال: الأسد.

(٢) المراد بالحجاب احتجاب الممدوح عن قصاده، مقص: مبعده، وتحتجب: تختفي تحت الغيوم.

(٣) النديم: الجليس على الشراب، ويقضي: ينتهي. يقول: انهتوم للسر يضعه حيث لا يطلع عليه النديم ولا يكشف عنه الشراب.

وفيهما يلي طائفة من الأمثلة لهذا الموضع من مواضع الوصل:

- ١ - أنت أيقظتني وأطلعت عيني على عالم من السر أخفى
 ٢-وما زلت مذ كنت تولي الجميل وتحمي الحريم وترعى النسب
 ٣- وللسر مني موضع لا يناله نديم ولا يفضي إليه شراب(٣)
 ٤-وأبطأ عني والمنايا سريعة وللموت ظفر قد أطال وناب

وإذا تدبرنا الجملتين «لا يناله نديم» «لا يفضي إليه شراب» في البيت الثالث وجدنا أن للأولى موضعاً من الإعراب لأنها صفة للنكرة قبلها و هي كلمة «موضع»، و أن الشاعر أراد إشراك الثانية لها هذا الحكم الإعرابي، ولهذا وصلها بها أو عطفها عليها بالواو .

* * *

- ويجب الوصل الجملتين إذا اتفقتا خبراً أو إنشاءً، وكانت جهة جامعة، مناسبة تامة، ولم يكن هناك سبب يقتضي الفصل بينهما.

و فيما يلي طائفة من أمثلة هذا الموضع الثاني من مواضع الوصل

١- قال تعالى: «إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم؟ .

- ٢ - ديارهمو انتزعناها انتزاعاً وأرضهمو اغتصبتها اغتصاباً
 ٣ - وما كل فعال بجازي بفعله ولا كل قوال لدي يجاب
 ٤ - فلا تترك الأعداء حولي ليفرحوا ولا تقطع التسأل عني وتقع
 ٥ - فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
 ٦- وما أنس دار ليس فيها مؤانس؟ وما قرب قوم ليس فيهم مقارب؟

* * *

ففي الأمثلة الثلاثة الأولى هنا اشتمل كل مثال منها على جملتين متحدثين خبراً متناسبتين في المعنى وليس هناك من سبب يقتضي الفصل، ولذلك عطفت الجملة الثانية على الأولى في كل منها بواو العطف.

وفي الأمثلة الأخيرة اشتمل كل واحد منها على جملتين متحدثين إنشاءً متناسبتين معنى، وليس هناك من سبب أيضاً يقتضي الفصل، ولذلك عطفت الثانية على الأولى . وهكذا يجب الوصل بين كل جملتين اتحدتا خبراً أو إنشاءً، وتناسبتا في المعنى، ولم يكن هناك مانع من العطف .

ج - ويجب الوصل بين الجملتين إذا اختلفنا خبراً وإنشاءً وأوهم الفصل خلاف المقصود. وهذا هو الموضع الثالث من مواضع الوصل .

وتتمثل شواهد هذا النوع من الوصل في الإجابة بالنفي على سؤال أدواته «هل» أو «همزة التصديق، مع التعقيب على جملة الجواب المنفي بجملة دعائية .

ومن أمثلة ذلك :

١ - لا ولطف الله به . تقول ذلك في جواب من سألك : هل تحسنت صحة صديقك؟ .

٢ - لا وحفظك الله . تقول ذلك في جواب من سألك : الك حاجة أقضيها لك؟.

ف «لا» في هذا الموضع قائمة مقام جملة خبرية تقديرها في المثال الأولى «لم تتحسن صحته» و ا وتقديرها في المثال الثاني «لا حاجة لي»، وكل من جملتي لطف الله به» و «حفظك الله» جملة دعائية إنشائية. وقد كان الأمر يقتضي هنا الفصل بين الجملتين لاختلافها خبراً وإنشاءً، فيقال في المثال الأول ولا لطف الله به» وفي الثاني ولا حفظك الله» . ولكن الفصل على هذه الصورة) يجعل السامع يتوهم أنك تدعو عليه في حين أنك تقصد الدعاء له. ولذلك وجب العدول هنا عن الفصل إلى الوصل. وكذلك الحال في كل جملتين اختلفتا خبراً وإنشاءً وكان العطف بينها يوهم خلاف المقصود .

وفيما يلي تلخيص وتجميع للقواعد التي تحكم مواضع الوصل: (يجب) الوصل بين الجملتين في ثلاثة مواضع:

الأول - إذا قصد إشراك الجملتين في الحكم الإعرابي.

(١) يقصد بالتناسب أن تكون بين الجملتين رابطة أو صلة تجمع بينها، كأن يكون المسند إليه في الأولى له تعلق بالمسند إليه في الثانية، وكأن يكون المسند في الأولى مماثلاً للمسند في الثانية أو مضاداً له.

الثاني - إذا اتفقت الجملتان خبراً أو إنشاءً، وكانت بينها جهة جامعة، أي مناسبة تامة، ولم يكن هناك سبب يقتضي الفصل بينها .

الثالث - إذا اختلفت الجملتان خبراً وإنشاءً، وأوهم الفصل خلاف المقصود .

وفيما يلي طائفة أخرى من أمثلة الوصل يترك للدارس أمر التعرف إلى موضع الوصل في كل منها وموجبه.

١ - قال تعالى: «فليضحكوا قليلاً وليبكون كثيراً».

٢ - وقال تعالى (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي).

٣ - «رب هب لي حكماً وألحقتني بالصالحين، واجعل لي لسان صدق في الآخرين. واجعلني من ورثة جنة النعيم. واغفر لأبي إنه كان من الضالين. ولا تخزني يوم يبعثون»

٤ - وقال ابو بكر رضي الله عنه: "أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم".

٥ - وشر عدويك الذي لا تحارب وخير خليليك الذي لا تناسب

٦ - سل عن شجاعتك وزره مسالماً وحذار ثم حذار منه محارباً

٧ - وأسطو وحبّي ثابت في قلوبهم وأحلم عن جهالهم وأهاب

٨ - ولست واجد شيء أنت عادمه ولست غائب شيء أنت حاضره

- ٩- أعياء علي أخ وثقت بوجه
وأمنت في الحالات عقبى غدره
- ١٠- تسألني: من أنت؟ وهي عليمه
وهل بفتي مثلي على حاله نكر
- ١١- فأظماً حتى ترتوي البيض والقنا
وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر
- ١٢- لا وجعني الله فدانك
لا وأيدك الله

الإيجاز والإطناب والمساواة

إذا أردنا التعبير عن معنى يختلج في نفوسنا فلن تخرج صورة كلامنا عن ثلاث:

١. الصورة المختصرة التي تحوي في مضمونها معان كثيرة، وهو ما يسميه البلاغيون بالإيجاز.

٢. الصورة المطولة ذات المعاني القليلة والألفاظ الكثيرة، وتسمى الإطناب.

٣. الصورة المطابقة وفيها يتساوى اللفظ والمعنى ويطلق عليها المساواة.

وفي مجال تناولنا لهذه الصور الثلاث نصوغها على صورة الإطناب إذ المقام يقتضيه.

أولاً: الإيجاز

لنبدأ بالكلام عن الإيجاز فقد ذكره البلاغيون، وأشادوا به في مواطنه مقدمين له بما ذكره عنه الإمام عبد القاهر الجرجاني وخاصة الحذف منه وعرفوه فقالوا:

الإيجاز: هو التعبير عن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، وهو ما يتناسب مع العرب في العصور الأولى حيث إنهم كانوا أميين، فآثروا الإيجاز في تعبيراتهم؛ لأنها أوعى للحفظ، وأيسر للتمكن في الذهن، وقال الجاحظ عن الإيجاز: لو أن قانلاً قال لبعضنا: ما الإيجاز؟ لظننت أنه يقول: الاختصار.

هذا، وإن كان التركيب خال من الحذف فالإيجاز إذن إيجاز قصر وهو: التعبير عن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة دون حذف شيء من التركيب، وإن كان ثمة حذف فهو إيجاز الحذف.



فكقوله تعالى: «أولئك لهم الأمن» [الأنعام: ٨٢] فقد دخل تحت الأمن جميع ما يحقق السلامة والأمان وعدم القلق والفقر والخوف والمرض، وإليك تخيل ما يمكن أن يحصيه القلم ليعدد ويسرد معان عديدة شملت كلمة واحدة ألا وهي الأمن.

ومثل ذلك قول المولى عز وجل شأنه: «ألا له الخلق والأمر» [الأعراف: ٥٤] فكلمتا (الخلق والأمر) جمعنا كل ما لله تعالى إذ هو مالك الملك فخلق ما على الأرض وما فيها، والبحار وما عليها وما فيها والسماء وما بينها وبين الأرض من مخلوقات كل ذلك في (له الخلق) وأمر كل المخلوقات من شدة وفرح ورزق وأجل كل على حدة بيد الله الواحد الأحد، فلما سمع أن عمر رضى الله عنه قرأها قال: من بقي له شيء فليطلب.

وقوله تعالى: (أخرج منها ماءها ومرعاها) [النازعات: ٣١]، وقوله تعالى: (وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين) [الزخرف: ٧١]، فقد جمع كل ما تطيب به النفس من ملذات ورغائب في الجنة. ولك أن تعدد على اختلاف أنفس الناس، اختلاف ما تشهيه كل نفس، وما يطيب لكل عين، ولكن أنى لنا ذلك ومنشؤها هو الرحمن.

وقد أجمعت كتب البلاغة على مثال صار لشهرته كالعلم على إيجاز القصر، وأورده مع مقارنته بقول العرب المأثور كما فعلوا، لعل فيه العبرة لمن يتناول على القرآن، فقد قال الله تبارك وتعالى: «ولكم في القصص حياة يا أولي الألباب» [البقرة: ١٧٩].

والحياة تنتج عن القصاص، لأن في قص الواحد حياة لأسرة ولبلد كامل، ولقد شاع عند العرب قول موجز في هذا المعنى وهو: (القتل أنفى للقتل)، فأجريت مقارنة بين التعبيرين، على النحو الآتي:

- ١-التعبير القرآني السامي خال من التكرار وفي تعبيرهم تكرر لكلمة القتل.
- ٢-إنه ليس كل قتل نافياً للقتل إلا إذا كان هذا القتل على وجهة القصاص، وهذا ما تدل عليه الآية، فإن في كل قصاص حياة، أما القتل المفهوم من قولهم فهو أدعى لقتل أكثر ولفوضى أعم حيث لا يقوم به الولي، وليست له ضوابط.
- ٣-اشتملت الآية الكريمة على محسنٍ بديعي وهو الطباق، وخلا القول من المحسنات.
- ٤ - جعلت الآية الكريمة القصاص كالأصل للحياة بإدخال (في) عليه وكان أحد الضدين وهو (الفناء) صار محلاً للحياة، وفيه مبالغة وتخيل إذ يجعل الفناء أصلاً للحياة.
- ٥-في القصاص حياة * [البقرة: ١٧٩] هو الذي يناظر قولهم: (القتل أنفى للقتل) وعليه فالآية اشتملت على الإيجاز؛ حيث عدد حروفها أقل؛ فحروف الآية الكريمة أحد عشر حرفاً - إذا اعتبر التنوين حرفاً- وإلا فعشرة، وحروف قولهم أربعة عشر حرفاً، والمعتبر الحروف الملفوظة لا المكتوبة، لأن الإيجاز إنما يتعلق بالعبارة دون الكتابة.
- ٦-وفي تنكير كلمة حياة ما يفيد التعظيم والتنويع أي لكم في القصاص نوع خاص من الحياة وهو نوع عظيم.
- ٧-خلو الآية الكريمة من لفظ القتل المشعر بالوحشية.
- ٨-إيحاء لفظ القصاص بالعدل، ومنه يدرك من يهم بالقتل أن مصيره القتل أيضاً إن هو فعل.
- ٩ - الآية شاملة للقتل والجرح وما إلى ذلك، وقول العرب اشتمل على القتل فقط.

وفيما ذكرته من فوارق بين الكلامين، يزيل أدنى شك يلم بالنفس والعياذ بالله - ويؤكد من اليقين بأن القرآن الكريم كلام رب العالمين.

ومن الأمثلة الظاهرة والمنتشرة على إيجاز القصر قول المولى "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجهلين" [الأعراف: ١٩٩]، فالآية الكريمة جمعت ولا شك مكارم الأخلاق، وهي ترسم للداعي الطريق؛ طريق الدعوة الطويل، وتحف به المكاره من الجانبين، متمثلة في تكذيب الناس للداعية واستهزائهم به وسخريتهم منه، ولا ريب وهذا شأن الناس، في كل زمان ومكان، حتى مع النموذج المثالي للداعية وهو الرسول - صلي الله عليه وسلم- فيعلم الله تعالى ما سيلقيه الداعية فلا يتركه هكذا تتناوشه الألسن فيأمره بأخذ ما تيسر من أقوالهم، وأمرهم بالعرف وهو كل ما تعارف الناس على حسنه ولك أن تسطر في ذلك الكتب، فلا تحيط بما تعارف الناس على حسنه.

والداعي إلى الله وإن أخذ العفو وأمر بالعرف كما أمره المولى، إلا أنه لا يسلم من أذية البشر فعلاجه في تلك الحالة في كلمتين: هما الإعراض عن الجاهلين مصداقاً لقول الشاعر:

ولقد أمر على اللئيم يسبني فمضيت ثم قلت لا يعينني

ثم يختم الموقف كله بالحل المريح للحالة النفسية التي قد تعترى الداعي حينما يرى للباطل انتفاشه، ويلحظ ذله أو ضيق حاله ويأتيه الشيطان- وكثيراً ما يحدث - ليوسوس إليه أكلهم خطأ وأنت صواب؟ فليكن جوابك أعود بالله من الشيطان الرجيم كما قال تعالى: «وإما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله» [الأعراف: ٢٠٠]

ومنه قوله: "لا يصدعون عنها ولا ينزفون" [الواقعة: ١٩]، في شأن خمر الجنة نفى عنها جميع ما في خمر الدنيا من العيوب وكذلك وصف فاكهة الجنة بأنها: «لا مقطوعة ولا ممنوعة» [الواقعة: ٣٣] فنفى عنها كل ما يحدث لفاكهة الدنيا من تغيير أو تحديد بأوقات معينة.

وقوله تعالى: (والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس) [البقرة: ١٦٤]،

فقد جمعت الآية الكريمة كثيراً مما يصلح به شأن الناس من تجارة وترحال وصيد وعبادة وما إلى ذلك.

أما الحديث النبوي فجله يمثل به لإيجاز القصر، لأن الحبيب أوتى جوامع الكلم، ومن جوامعه: (البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس) .

ثانياً: إيجاز الحذف:

هو القسم الثاني من أقسام الإيجاز، وهو ما قصد فيه إلى الإكثار من المعاني مع حذف شيء من التركيب، وهذا المحذوف أقسام:

١- الإيجاز بحذف الحرف: وذلك كقوله تعالى: «ولم أك بغياً» [مريم: ٢٠]، والأصل فيها ولم أكن وحذف حرف النون للتخفيف.

٢- الإيجاز بحذف كلمة: وهو كثير وله مواضع متعددة:

أ. حذف المبتدأ كقوله تعالى: (بل عباد مكرمون) [الأنبياء: ٢٦] أي هم.

ب - حذف الخبر كقوله تعالى: «أكلها دائم وظلها» [الرعد: ٣٥]، أي ظلها دائم.

ج - حذف الفاعل كقوله تعالى: (إذا بلغت التراقي) [القيامة: ٢٦]، يعنى : الروح

وكقول الشاعر:

أما وي ما يعنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

يعنى: الروح أيضاً.

د - حذف المفعول به كقوله تعالى: «فدوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا؟» [السجدة: ١٤] يعنى: عذاب، وقد سبقت أمثلة عديدة لحذف الكلمة في باب المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل.

هـ - حذف الصفة: كقوله تعالى: «الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف» (قرش: ٤)،
يعنى: جوع شديد وخوف عظيم، وهو ما يفهم من التفكير في كلمتي (جوع) و (خوف)،
ومن حذف الصفة قوله تعالى في سورة الكهف: (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا
[الكهف: ٧٩] حذفت الصفة وتقديرها (سليمة) إذ لو كان الملك يأخذ كل سفينة مطلقا، لما
تحققت الحكمة الإلهية من عيبها.

و- حذف الموصوف كقوله تعالى (وعنده قاصرات الطرف أتراب) [ص: ٥٢]

يعنى: حور قاصرات الطرف.

هذا، وجميع ما سبق من أمثلة المحذوف فيها إما جزء كلمة أو كلمة مفردة، وفيما يأتي
سنتناول المحذوف جملة أو جزء جملة.

حذف جزء جملة: ويقصد بجزء الجملة القسم وجوابه والشرط وجوابه وذلك كما سيلى:

أ. حذف القسم كقوله تعالى «لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون
في المدينة» [الأحزاب: ٦٠]، وتقدير القسم المحذوف (والله) وسر الحذف هو العلم به.

ب. حذف جواب القسم وذلك كقوله تعالى: «والنازعات غرقا* والناشطات نشطا*
والسابحات سبحا - فالسابقات سبقا* فالمديرات أمرا* يوم ترجف الراجفة* تتبعها الرادفة)

حذف جواب القسم لدلالة القرينة عليه ووضوح المعنى، تقدير الجواب: لتبعثن، ومثل ذلك
قوله جل شأنه: (والفجر* وليال عشر* والشفع والوتر* والليل إذا يسر* هل في ذلك قسم
لذي حجر) وتقدير الجواب المحذوف: لتعذبين، وهذا كثير في كتاب الله تعالى.

ج. حذف الشرط: ومنه قوله تعالى: (فاتبعوني يحببكم الله) [آل عمران: ٣١]، أي فإن
اتبعتموني (يحببكم الله).

وقوله تعالى: (وإذ استسقى موسى لقومه، فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا
عشرة عينا) [البقرة: ٦٠]، يعنى: فضرب (فانفجرت) فالشرط محذوف دل عليه جوابه.

يقول الشيخ الدسوقي^(١): إنما حذفت إشارة إلى سرعة الامتثال، حتى إن أثره وهو الانفجار لم يتأخر عن الأمر.

حذف جواب الشرط: ومنه قوله تعالى: (قل أرعيتم إن كان من عند الله وكفرتم به) [الأحقاف : ١٠]، حذف جواب الشرط وتقديره : أستم ضالين وظالمين لإنكاركم ما جاءكم من ربكم.

وقوله تعالى: «ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت» [الأنعام: ٩٣]، أي: لرأيت سوء حالهم، حذف جواب الشرط لتذهب فيه النفس كل مذهب وتتخيل ما هم فيه من وبال، نسأل الله النجاة.

حذف جمل: يحذف من الكلام جملة أو أكثر إذا دلَّ عليها دليل، ويذكر ابن يعقوب سر الحذف فيقول: (وحذف كل ذلك للاختصار، وللعلم بالمحذوف، لئلا يكون ذكره تطويلاً لعدم ظهور الفائدة في ذكره مع العلم به)، ومن ذلك قوله تعالى: «أذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون* قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلى كتاب كريم» [النمل: ٢٨، ٢٩]، فالمحذوف عدة جمل، تقديرها: فأخذ الكتاب، وذهب به، فلما ألقاه على المرأة وقرأته، قالت: يا أيها الملأ. ويقول الخطيب القزويني: (أي ففعل ذلك، فأخذت الكتاب فقرأته، ثم كان سانلاً قال: فماذا قالت؟ فقيل: قالت: يا أيها الملأ)

ومثله قوله تعالى: «لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون» [يوسف: ١٤]، الآية الكريمة تمثل جزءاً من الحوار الذي دار بين أخوة يوسف وأبيهم وباقي الحوار محذوف ترك النسق القرآني لنفسك فيه أن تسبح وتترقب: هل يوافق الوالد على ذهاب ابنه معهم على تخوفه منهم، ويطوى النسق ما تخيلته أنت ويحذفه للعلم من قوله تعالى «فلما ذهبوا به، وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب» [يوسف: ١٥] فهل وقع أثر الحذف في نفسك؟ وفي موضع آخر من السورة نفسها ترى قوله الله تعالى: «يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت الخاطئين، وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين» [يوسف ٢٩، ٣٠]

تلحظ أن بين الآيتين الكريمتين جملاً حذفت تجيب على سؤال من أذاع الخبر حتى علم به النسوة في المدينة والأمر فيه ما فيه من الحساسية، وعلى ذلك فالمعنى كامل غير منقوص.

وبنظرة عامة فإن سورة يوسف فيها العديد من مواطن حذف الجمل.



الإطناب لغة: مصدر أطنب، أطنب في كلامه بالغ فيه.

وأول من تحدث عن الإطناب هو: أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه "مجاز القرآن".

الإطناب اصطلاحاً: **عرض المعنى في عبارة زائدة بحيث تحقق الزيادة فائدة** هو، فإن لم تحقق الزيادة فائدة خرج الكلام من الإطناب إلى التطويل إن كانت الزيادة غير متعينة فالكلام حشو، وإليك أمثلة توضح ذلك ففي قول الشاعر:

حييت من طلل تقادم عهده *** أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

فكلمة أقوى بمعنى خلا وكذلك أقفر بمعنى خلا فأحدهما زائدة لكنها متعينة.

أما الزيادة في الكلام ولكنها غير متعينة فتسمى حشواً وهو ينقسم إلى نوعين:

أ- حشو مفسد للمعنى: كقول الشاعر:

ولا فضل فيها للشجاعة والندى *** وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

بمعنى أنه لا قيمة لمدح صفات الشجاعة والكرم والصبر في هذه الدنيا إلا مع وجود الموت فيها، أي أن الشجاع إن كان يدرك أنه لن يموت أبداً فما يؤخره إذن عن الشجاعة؟ فليشجع فلن يضيره شيء، وكذلك الصبر لأنهما إنما عدا من الفضائل لما فيهما من الإقدام على الموت وعدم الخوف منه.

أما الكرم فمعناه مخالف لما سبق لأنه في حالة علم الإنسان بموته فأعطى وأجزل العطاء فهذه ليست محمداً فيه، بل هي من مسالبه، فالزيادة في البيت معروفة وهي كلمة الندى ولا يخفى عليك ما أدت إليه من فساد في المعنى.

أما الحشو غير المفسد فكقول زهير بن أبي سلمى من قصيدة في إصلاح ذات البين بين قبيلتي عبس وذبيان:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله *** ولكنني عن علم ما في غد عم

ففي كلمة قبله حشو غير مفسد للمعنى أما كونه حشواً فلأنه زيادة متعينة إذ من المعلوم أن الأمس يكون قبل اليوم، وكما تلحظ فالمعنى واضح وغير فاسد.

ومثله قول الشاعر:

ذكرت أخي فعاودني *** صداع الرأس والوصب

ففي ذكر الرأس مع الصداع حشو، لأنه من المعلوم أن الصداع لا يكون إلا في الرأس، فلم نسمع بصداع في اليد، فالزيادة متعينة وهي أيضاً كالسابقة غير مفسدة للمعنى.

ومما سبق ندرك أن الحشو والتطويل يخرجان عن نطاق البلاغة أما الإطناب فيكون على صور، منها

١ - الإيضاح بعد الإبهام:

وذلك كقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم* تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) [الصف: ١٠، ١١]، فقد ذكر التجارة مبهمة، فقال: «هل أدلكم على تجارة» ثم فصل ووضح فقال تعالى: (تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) [الصف: ١١]

ومثله قوله تعالى (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) [الحجر: ٦٦].

فقد أجمل الأمر، ثم وضع بأن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين للتهويل من أمر العذاب، ولتقرير المعنى في ذهن السامع، فكانه ذكره مرتين الأولى بالإبهام، والثانية عن طريق التفصيل.

ومثله قوله تعالى (واتقوا الذي أمركم بما تعلمون* أمركم بأنعام وبنيين) [الشعراء ١٣٢، ١٣٣]

ولك أن تستخرج الشاهد وتوضيح القول فيه.

وعليه ورد قوله تعالى: «فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى " [طه: ١٢٠]

فالوسوسة مجملة لا يدري ما نوعها، ثم فصلت بالصورة السابقة.

[التوشيع]

وهو أن يؤتى في عجز الكلام غالباً بمتنى مفسرٍ باسمين ثانيهما معطوف على الأول، نحو قوله (ص): «يشيب ابن آدم وتشيب معه خصلتان: الحرص وطول الأمل» وقد يكون المتنى في أول الكلام، كقوله: منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال.

٢ - ذكر العام بعد الخاص:

وذلك للاهتمام بشأن الخاص فيذكر مرتين: مرة وهو خاص ومرة ضمن العام؛ كقوله تعالى: «رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا" (نوح: ٢٨)

فروح [سأل الله المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات، ولا شك أنه ووالديه ضمن المؤمنين والمؤمنات.

كقوله تعالى: «تنزل الملائكة والروح فيها» [القدر: ٤] وقصد بالروح جبريل - عليه السلام- وهو داخل في جنس الملائكة، ثم ذكر مرة ثانية وحده وغرض الإطناب هنا التنويه بشأن الخاص.

ومثله قوله تعالى: «حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى» [البقرة: ٢٣٨]،

وقوله تعالى: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) [آل عمران: ١٠٤]

فالأمر بالمعروف (خاص) وهو داخل ضمن (العام) وهو الدعوة إلى الخير، وخص بالذكر للإشارة إلى مكانته من الشرف.

٤- التكرار:

وهو ذكر الشيء مرتين أو أكثر لأغراض بلاغية منها:

أ- تأكيد المعنى وتقريره في نفس السامع، كقوله تعالى: «كلا سوف تعلمون* ثم كلا سوف تعلمون» [التكاثر: ٣، ٤] ففيها تأكيد للإنذار فهم من تكريه.

ب - الترغيب في قبول النصح: كما جاء في قوله تعالى (وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد* يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار) غافر: ٣٨، ٣٩ . نلاحظ أن (يا قوم) تكررت فأوحت بحرصه على هداية قومه.

ج - يكرر اللفظ لطول الكلام: كقوله تعالى: (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) [النحل: ١١٠]

فكرر (إن ربك) [الأنعام: ٨٣] لطول الكلام بالصلة وحتى ينتبه السامع.

د. قصد الاستيعاب: كقولك: ذاكرت الكتاب صفحة صفحة، وقرأت الجريدة كلمة كلمة.

وهو أن يوتى بين كلامين متصلين في المعنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لفائدة زائدة كما في قوله تعالى: «فلا أقسم بمواقع النجوم* وإنه لقسم لو تعلمون عظيم* إنه لقرآن كريم* في كتاب مكنون) [الواقعة: ٧٥ - ٧٨] ففي الآيات اعتراضان:
الأول: إنه لقسم عظيم.

والثاني: لو تعلمون.

والمراد تعظيم القسم وتفخيم شأنه، وفيه تعظيم للمقسم عليه وهو القرآن الكريم.

ومثله قوله تعالى: (ويجعلون له البنت سبحانه ولهم ما يشتهون) [النحل: ٥٧]
فالاعتراض في قوله تعالى: سبحانه. ومثله قول الشاعر:

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

فالاعتراض في قول الشاعر - وبلغتها- وهي جملة اعتراضية قصد من ورائها إثارة عطف الممدوح.

ويوتى به في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم، وذلك كقوله تعالى: «فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) [المائدة: ٥٤].

والاحتراس في قوله (أعزة على الكافرين) [المائدة: ٥٤] فلو اكتفت الآية الكريمة بقولها:
«أذلة على المؤمنين) [المائدة: ٥٤] فقد يتوهم أنهم أذلة أيضاً على الكافرين.

ومن ذلك قول الشاعر:

فسقى ديارك غير مفسدها *** صوب الربيع وديمة تهى

فالإطناب في (غير مفسدها) وطريقه الاحتراس: حيث احترس أن يفهم خطأ أن الأمطار كانت شديدة فأفسدت الديار فتحاشى هذه الحالة بقوله غير مفسدها.

ومنه قول الشاعر:

صبنا عليها - ظالمين- سياتنا فطارت بها أيد سراع وأرجل

فقد احترس عن وصف الفرس بالبلادة بكلمة - ظالمين- فألقت في نفس السامع أن الفرس ليست بحاجة إلى تلك السياط التي تصب عليها، فالإطناب طريقه الاحتراس.

[التتيم]

وهو أن يُوتى بفضلة أو حشو فيما لا يوهم خلاف المقصود، وذلك على سبيل المبالغة. ومثاله قوله تعالى: " وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى " [البقرة: ١٧٧] فقوله على حبه تتيم لأن المعنى تم قبلها.

ومثاله أيضا قوله تعالى: " لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ " [آل عمران: ٩٢] فمما تحبون تتيم لأن المعنى يتم بقوله (تنفقوا).

* وقد يكون الإطناب بزيادة حرف على أصل المعنى لغرض من الأغراض، نحو: زيادة (أن) بعد (لما) كما في قوله تعالى: " فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا "

[يوسف: ٩٦]

فزيادة (أن) فيه للدلالة على أن الفعل بعدها لم يكن على الفور، بل كان فيه تراخ وبطء.



ويكون بأن تعقب جملة بجملة أخرى مشتملة على معناها لتؤكد ما وينقسم إلى نوعين

أ- تذييل جار مجرى المثل وذلك بأن تكون الجملة الثانية مشتملة على حكم مستقل، بمعنى أنه يصح إطلاقها مستقلة في موقف مشابه لما وردت له، ذلك كقوله تعالى: «وقل جاء الحق وزهق البطل إن البطل كان زهوقاً» [الإسراء: ٨١].

فيصح أن نطلق جملة قوله تعالى: «إن البطل كان زهوقاً» في كل موقف يستعلى فيه الحق على الباطل.

يقول ابن يعقوب (١): ولا يخفى أن الجملة الثانية، (إن البطل كان زهوقاً) لا يتوقف لمعناها - أي لفهم معناها على الجملة الأولى، وقد تضمنت معنى الأولى، وهي زهوق الباطل أي اضمحلاله وذهابه. ومثله قول النابغة الذبياني:

ولست بمستبق أcha لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب؟

فقوله: أي الرجال المهذب تذييل جاء مؤكداً لمفهوم الجملة؛ لأنه يحمل نفس معناها وهو: لا يوجد صديق كامل، فلا بد أن تكون به بعض العيوب.

ب. تذييل لا يجري مجرى المثل: وهو ما لا يستقل بمعناه، بل يرتبط في المعنى بما قبله، وذلك كقوله تعالى (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء سدر قليل* ذلك جزينهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور)

[سبأ: ١٦-١٧]

فقوله تعالى: (وهل نجازي إلا الكفور) تذييل غير جار مجرى المثل لعدم استقلاله في معناه عما سبق.

ومثله قول الشاعر:

لم يبق جودك شيئاً أومله تركنتني أصحاب الدنيا بلا أمل

^١ مواهب الفتاح ج ٣ ص ٢٢٨.

ففي البيت إطناب طريقه التذييل، وهو جملة تركتني أصحاب الدنيا بلا أمل وهو مؤكد لمفهوم الشطر الأول والتذييل هنا لا يجرى مجرى المثل لارتباطه بما سبق.

المساواة

وهي تأدية المعنى المراد بعبارة مساوية له، كقوله تعالى: "ولا يحق المكر السيء إلا بأهله" [فاطر: ٤٣]

وقول الرسول (لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنما والزكاة مغرماً).

وقول طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وقول زهير بن أبي سلمى:

ومهما تكن عند امرئ خليفة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

تدريب على فصل الإيجاز والإطناب والمساواة

- ١ - بين الإيجاز، والإطناب، والمساواة، وأقسام كل منها فيما يأتي:
- ١ - قال تعالى: وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا الانسان: ٨
- ٢ - قال تعالى: وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فاطر: ٤٣
- ٣ - قال تعالى: مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ "الروم: ٤٤
- ٤ - قال تعالى: كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ "الطور: ٢١
- ٥ - قال تعالى: فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا" القصص: ١٩
- ٦ - قال تعالى: فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا "مزيم آل عمران: ٣٦
- ٧ - قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ"
- ٨ - قال تعالى: (إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) الشرح: ٥ - ٦
- ٢ - بين الإيجاز، والإطناب، والمساواة، وأقسام كل منها فيما يأتي:
- ١ - ألا حبذا هند وأرض بها هند ... وهند أتى من دونها النأي والبعـد

- ٢ - وأعلم علم اليوم والأمس قبله ... ولكنتي عن علم ما في غد عم
- ٣ - أمن تذكر جيران بذي سلم ... مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
- ٤ - ولست بمستيق أبا لا تلمه ... على شعث- أي الرجال المهذب
- ٥ - من يلق يوما على علاته هرما ... يلق السّاحة منه والندى خلقا
- ٦ - إن الثمانين- وبلغتها قد احوجت سمعي الى ترجمان
- ٧ - إذا ما غضبنا غضبة مضرية ... هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
- ٨ - فإنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
- ٩ - إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ... ظمئت وأي الناس تصفو مشاريه
- ١٠ - شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ... ويستحلّ دم الحجاج في الحرم
- ١١ - حلیم إذا ما الحلم زين لأهله ... مع الحلم في عين العدو مهيب
- ١٢ - أتى الزمان بنوه في شبيبته ... فسرههم واتيناه على هرم
- ١٣ - والفيته بحرا كثيرا فضوله ... جوادا متى يذكر له الخير يزدد
- ١٤ - فسقى ديارك غير مفسدها ... صوب الربيع وديمة تهمي
- ١٥ - لم يبق جودك لي شيئا أومله ... تركنتي أصحاب الدنيا بلا أمل
- ١٦ - وخفوق قلب لو رأيت لهيبه ... يا جنّتي لرأيت فيه جهنّما
- ١٧ - وإنّ صخرًا لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

- ١٨ - يدعون عنتر والسيّوف كأنها ... أشطان بئر في لبنان الأدهم
- ١٩ - يدعون عنتر والسيّوف كأنها ... لمع البوارق في سحاب مظلم
- ٢٠ - صببنا عليها - ظالمين - ... سياتنا فطارت بها أيد سراع وأرجل
- ٢١ - هل ابنك إلا من سلالة آدم ... لكلّ على حوض المنية مورد

أهم المصادر والمراجع

١. أسرار البلاغة لعبد القاهر، ط: صبيح سنة ١٣٩٧هـ ت، محمد عبدالعزيز النجار .
٢. إعجاز القرآن للباقلاني، ط: دار المعارف سنة ١٩٧٧ م .ت: السيد صقر .
٣. الإيضاح للقرويني وبهامشه البغية. ط: صبيح سنة ١٣٩٢ هـ.
٤. البديع لابن المعتز نشر إنطانيوس كراتشوفسكى لندن سنة ١٩٣٥ م.
٥. البلاغة تطور وتاريخ، لشوقي ضيف. ط: دار المعارف سنة ١٩٧٧ م.
٦. البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف للأستاذ/ محمد أبو موسى. ط: دار الفكر العربي.
٧. البيان والتبيين للجاحظ. ط: الخانجي. ت: عبد السلام هارون.
٨. تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة. ط: الحلبي ١٣٧٣ هـ.
٩. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. ط: دار المعارف سنة ١٩٧٦ م.
١٠. الحيوان للجاحظ. ط: السامي سنة ١٩٥٠ م.
١١. خزانة الأدب للحموي. ط: الفجالة. ت: د/ عبد المنعم خفاجي.
١٢. دراسة في مصادر الأدب، د/الطاهر أحمد مكي، دار الفكر العربي - القاهرة، ثامنة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م
١٣. دلالات التراكيب، د. محمد أبو موسى. ط: دار المعلم سنة ١٣٩٩ م.
١٤. سر الفصاحة لأبي سنان الخفاجي. ط: الخانجي. ت: على فودة.
١٥. الشعر والشعراء لابن قتيبة. ط: دار الكاتب العربي سنة ١٣٨٨هـ.
١٦. الصاحبى لأحمد بن فارس. ط: المؤيد سنة ١٣١٨ هـ.
١٧. الصنائع لأبي هلال العسكري. ط: الحلبي سنة ١٩٧١م.
١٨. طبقات فحول الشعراء للجمحي. ط: المدني. ت: محمود شاكر.
١٩. الطراز للعلوى. ط: المقتطف سنة ١٣٢٢ هـ.
٢٠. العمدة لابن رشيح القيرواني. ط: دار الجيل. ت: محمد محيي الدين.
٢١. عيار الشعر لابن طباطبا: ط: شركة فن الطباعة سنة ١٩٥٦م.
٢٢. الفهرست لابن النديم ط: الاستقامة.

- ٢٣ . قواعد الشعر لثعلب. ط: دار المعارف سنة ١٩٦٦ م. ت: د/ رمضان عبدالنواب.
- ٢٤ . الكامل للمبرد. ط: نهضة مصر سنة ١٩٥٦ م. ت: محمد أبو الفضل.
- ٢٥ . الكتاب، لسيبويه، ط: الهيئة المصرية، سنة ١٩٧٧ م. ت: عبدالسلام هارون.
- ٢٦ . الكشف للزمخشري. ط: الحلبي سنة ١٣٨٩ هـ.
- ٢٧ . لسان العرب لابن منظور. ط: دار المعارف.
- ٢٨ . لمحات في المكتبة والبحث والمصادر، محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة ٢٠١٠ م.
- ٢٩ . المثل السائر لابن الأثير. ط: الحلبي. ت: محمد محيي الدين.
- ٣٠ . مجاز القرآن لأبي عبيدة. ط: الخانجي. ت: محمد فواد.
- ٣١ . معجم الأدباء لياقوت. ط: فريد رفاعي سنة ١٩٣٦ م.
- ٣٢ . معاني القرآن للفراء. ط: الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٨٠ م.
- ٣٣ . المطول لسعد الدين التفتازاني.
- ٣٤ . المغنى للقاضي عبد الجبار ج١٦ في إعجاز القرآن. ط: وزارة الثقافة والارشاد.
- ٣٥ . مفتاح العلوم للسكاكي. ط: الحلبي سنة ١٣٥٦ هـ.
- ٣٦ . الموازنة للآمدي. ط: دار المعارف سنة ١٣٨٩ هـ. ت: السيد صقر.
- ٣٧ . نقد الشعر لقدماء. ط: مطبعة أنصار السنة المحمدية سنة ١٩٤٩ م. ت: كمال مصطفى.
- ٣٨ . نقد النثر (البرهان في وجوه البيان) لابن وهب. ط: مطبعة مصر سنة ١٩٣٩ م. ت: طه حسين، وعبد الحميد العبادي.
- ٣٩ . النقد المنهجي عند العرب د/ محمد مندور. ط: نهضة مصر سنة ١٩٧٢ م.
- ٤٠ . نهاية الأيجاز في دراية الاعجاز للرازي مطبعة الآداب سنة ١٣١٧ هـ.

<https://ketabpedia.com>

<https://www.noor-book.com>

<https://elmaarifa.inf>

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوعات
٥	المقدمة: أهمية علوم الفصاحة والبلاغة
٦	- الفصل الأول: مقدمة في علوم الفصاحة والبلاغة
٦	● مفهوم الفصاحة لغة واصطلاحاً
٧	● شروط فصاحة اللفظ
١٢	● شروط فصاحة التركيب
١٧	● مفهوم البلاغة لغة واصطلاحاً
٢١	● مفهوم علم المعاني ومباحثه
٢٢	- الفصل الثاني: في الخبر والإنشاء
٢٤	● أغراض الخبر الأصلية
٢٦	● أغراض الخبر البلاغية
٣٣	● مؤكدات الخبر
٣٣	● أضرب الخبر
٤٢	● خروج الخبر عن مقتضي الظاهر
٤٥	● الفرق بين الإنشاء الطلبي وغير الطلبي
٤٦	● صيغ الإنشاء غير الطلبي

٥٠	● صيغ الإنشاء الطلبي
٥٠	الأمر
٥٩	النهي
٦٥	الاستفهام
٧٠	أدوات الاستفهام واستعمالاتها
٨٩	التمني
٩٣	النداء
٩٥	المعاني البلاغية للنداء
٩٨	الحقيقة والمجاز العقلي
٩٩	الالتفات
١٠٣	الأسلوب الحكيم
١٠٥	التقديم والتأخير
١٣٠	تعريف المسند إليه
١٣٢	تكثير المسند إليه
١٣٩	أسلوب القصر وطرقه
١٥٩	الفصل والوصل
١٦٠	مواضع الفصل

١٦٦	مواضع الوصل
١٧١	● الإيجاز والإطناب والمساواة
١٧٢	إيجاز القصر
١٧٥	إيجاز الحذف
١٧٨	الإطناب وصوره
١٧٩	الإيضاح بعد الإبهام
١٨٠	ذكر العام بعد الخاص
١٨١	ذكر الخاص بعد العام
١٨١	التكرار
١٨٢	الاعتراض
١٨٢	الاحتراس والتكميل
١٨٣	التتميم
١٨٣	التذييل
١٨٥	المساواة
١٨٦	تدريبات عامة على الإيجاز والإطناب والمساواة
١٨٩	المصادر والمراجع
١٩١	فهرس الموضوعات